بيتر هاندكه

عن يوم ناجح



نوبل
2019

ترجمة: زهراء باحكيم

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

مكتبة | ٩٧١
سُر مَن قرأ

عن يومٍ ناجحٍ

بيتر هاندكه

زهراء باحكيم/ مدرس مساعد بقسم اللغة الألمانية بالجامعة الألمانية بالقاهرة منذ عام 2011، حاصلة على الماجستير المشترك في الآداب والتربية بين جامعتي عين شمس ولايبزيج عام 2011، وليسانس الآداب من كلية الآداب جامعة القاهرة عام 1997، عملت في مجال الترجمة العسكرية والتخصصية بالمركز الإعلامي العسكري للقوات المسلحة من عام 1997 - 2011، كما عملت كمترجمة حرة بالكثير من المجالات ومع عدة مؤسسات.

عن يوم ناجح
طبعة 2020
رقم الإيداع: 2019/28568
الترقيم الدولي: 978-977-821-132-0



الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

This is full translation of the book "Versuch über den geglückten Tag" by Peter Handke © Suhrkamp Verlag Frankfurt am Main 1989.



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

بيتر هاندكه

عن يومٍ ناجحٍ

مكتبة | ٩٧١
سُر مَن قرأ

ترجمة

زهراء باحكيم



بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

هاندكه، بيتر، ١٩٤٢-
عن يوم ناجحٍ/ بيتر هاندكه، ترجمة: زهراء باحكيم
الجيزةً، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠١٩
٦٢ ص، ٢٠ سم
تدمك ٠-١٣٢-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- النجاح
أ- باحكيم، زهراء (مترجم)
ب- العنوان
١٣١,٣

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٨٥٦٨

«اعتنِ برزق اليوم».

«الَّذِي يَهْتَمُّ بِالْيَوْمِ، فَلِلرَّبِّ يَهْتَمُّ».

رسالة بولس الرسول إلى أهل روما، ١٤، ٦.

«يومٌ شَتويٌّ: الظلُّ يتجمّدُ على ظَهر الجَواد».

باشو (شاعر يابانيّ).

صورةٌ ذاتيةٌ رسمها الفنّانُ «ويليام هوجارت»، في لندن، تنقِلُ لحظةً من لحظات القرنِ الثامنَ عشرَ، تُصوّرُه حاملًا «لوحَ الألوان» يقسِمه في منتصفِه تقريبًا خطٌّ به تمويجةٌ خفيفة، يطلقون عليه «خطّ الجمالِ والنعمة» «Line of Beauty and Grace». كما نجد على سطح المكتب حجرًا مسطّحًا مستديرًا من شاطئ بحيرة «كونستانس»، يحفُّه من ناحية الجرانيت الأسود، يقسِمُه إلى نصفَين تقريبًا ويربطه في الوقت نفسه بالنصف الآخر خط أبيض دقيق مموّج، يبدو كالعرق الذي يسري في الجسد، راسمًا لوحةً فنيّةً رائعة، يتّضحُ فيها الانحناءُ الذي ظهر في اللحظة المناسبة تمامًا. وفي تلك الرحلة في قطار الضواحي بين تلال «السين» غرب باريس، وفي تلك الساعة من آخر ساعات بعد الظهيرة، عندما يكون الهواء النقيُّ والضوءُ قد استُهلكا في الصباح، لم يَعُد هناك شيء طبيعي، ولم يعد هناك سوى المساءِ الذي ربّما قد يساعد في الخروج من تعب اليوم، هذا التغيير المفاجئ للمسارات؛ لتصبح قوسًا واسعًا يُعدُّ غريبًا، ويُثير دهشتَنا، ونحن نمرُّ في أعلى البلدة الممتدّة على ضِفّتَي النهر، نمرُّ هناك على ارتفاع مدينة «سان كلو» ومدينة «سوريسن» أنفسهما تقريبًا التي تشبه في جنونها المعالمَ البارزة، التي تحمل منحنياتٍ غيرَ متوقَّعة، لتُخرجنا من زَخَم الحياة اليومية في لحظة، بين لفتة عينٍ وانتباهتها؛ لتأخذ منحنًى جديدًا، وتعود من

جديد فكرة «اليوم الناجح» بعد أن كادت تضيعُ في خضمّ اليوم، مصحوبةً بموجة، تعطيك الإحساسَ بالسخونة؛ لتحاول إضافة وَصفٍ جديدٍ، أو سردٍ لعناصر يوم ما ومشكلاته كهذا اليوم. «خطّ الجمالِ والنعمة» الموجود على لوح الألوان الخاصّ «بهوجارت» يمهّدُ الطريق حرفيًّا عبر كتل اللونِ غير الواضحة، ويمزج بينها، وفي الوقت نفسه يبدو وكأنّه يُلقي بظلالِه عليها.

مَنْ شَهِدَ مِن قَبلُ يومًا ناجحًا؟ الأغلبية ستقول إنّها مرّت بمثل ذلك اليوم، ولهذا قد يكون من الضروريّ أن نسأل سؤالًا آخر: هل تقصد «ناجحًا» أم «جميلًا» فقط؟ هل تتحدّثُ عن يوم «ناجحٍ» أم يومٍ -نعم هذا حقيقيّ، فهو أيضًا نادر- «خالٍ من الهموم»؟ هل يعني اليوم الناجح بالنسبة لك: يومًا مرّ دون مشكلات؟ هل ترى أنّ هناك فرقًا بين اليوم السعيد واليوم الناجح؟ هل يختلفُ الأمرُ بالنسبة لك أن تتحدّثَ من الذاكرة عن هذا اليوم الناجح، أم أنّه من الأفضل أن تتحدّثَ الآنَ، بعد حدوثه مباشرة، دون أن تُطمسَ ملامحه بفعل مرور الوقت؟ في مساء هذا اليوم نفسه، حيث لا يمكن أن نصفَه وقتَها بأنّه مجرّد «أُنجز» أو «مر»، ولكن يمكن وصفه فقط بأنّه كان يومًا «ناجحًا». إذًا هل اليوم «الناجح» يختلف اختلافًا جوهريًّا عن اليوم الخالي من الهموم، أو يوم الحظّ، أو اليوم المُفعَم بالنشاط، أو اليوم المثاليّ، أو اليوم الذي يتجلّى في الماضي البعيد -حَدَثٌ واحد يكفي؛ ليجعلَ يومًا كاملًا يرتقي في المجد- بغض النظر عمّا إذا كان يومًا مهمًّا بالنسبة

للعلم، أو الوطن، أو الشعب، أو شعوب الأرض كافّة، أو الإنسانية جمعاء؟ (على أيّ حال: انظر -ابحث عن- شكل الطائر الرابض هناك فوق الشجرة؛ لقد تمّت ترجمةُ الفعل اليونانيّ «يقرأ» في رسائل «بولس الرسول»، ترجمة حرفية، إلى «البحث عن»، إلا أنّه في واقع الأمر يقترب من كلمة «الإدراك»، أو «التعرف»، فهي كلمة لا تحمل أمرًا خاصًّا، وتحمل بين طيّاتها الطلب والرجاء، مثلما تفعل الطيور الطنّانة في أدغال أمريكا الجنوبية عندما تترك الشجرة التي تأويها، فتمثل أنّها تسقط مثل ورق الشجر لخداع الطيور الجارحة...).

- نعم، اليوم الناجح بالنسبة لي، ليس كالأيّام الأخرى كلِّها؛ فهو يعني بالنسبة لي أكثر. اليوم الناجح أكثر من هذا بكثير. فهو أكثر من مجرّد «ملحوظة ناجحة»، وأكثر من مجرّد «خطوة شطرنج ناجحة» (حتّى وإن كان دورًا كاملًا ناجحًا)، أكثر من «التسلُّق الأول في الشتاء»، وهو شيء مختلف عن «هروب ناجح»، أو «عملية جراحية ناجحة»، أو «علاقة ناجحة»، أيًّا كان «الشيء الناجح»، وهو مستقلٌّ تمامًا عن جرّة ريشة ناجحة على إحدى اللوحات، أو جملة ناجحة، ولا علاقة له نهائيًّا بـ«الانتظار الذي قد يستمرُّ مدى الحياة لقصيدة قد تنجح في ساعة»! اليوم الناجح لا يمكن مقارنته بأيّ شيء؛ فهو شيءٌ فريدٌ من نوعه.

هل يتعلّقُ الأمر بعصرِنا المميّز، حتّى يصبحَ نجاحُ يومٍ واحدٍ

موضوعًا (أو اتّهامًا)؟ ضع في اعتبارك أن الإيمان باستغلال «اللحظة» المناسبة بحقٍّ قد نجح في السابق، وهو بالطبع يمكن أن يستمرَّ معنا طوال «الحياة». الإيمان! التصوّر! الفكرة! على أيّ حالٍ كان معروفًا في السابق -سواء كان ذلك أثناء رعي الغنم فوق مرتفعات جبال «بندوس»، أو عند التجوّل تحت «الأكروبول» في أثينا أو أثناء التجوّل على الهضاب الحجرية في «أركاديا»- أنّ هناك شيئًا يشبه إله اللحظة الناجحة أو تلك الفيمتو ثانية، إلهًا على عكس الآلهة اليونانية الأخرى، لم يكن له صورةٌ أو حكاية: اللحظة الإلهية نفسُها هي التي تنتجُ كلَّ مرة صورة مختلفة، وتسرد، الآنَ، والآنَ، والآنَ، في الوقت نفسِه، لها الوقت المناسب لاتخاذ القرار الخاصّ بها كقصّة، وكلّ إلهٍ لحظة كان في وقته، أقوى من شخصيّة أيّ إلهٍ آخرَ، فهو حاضرٌ دائمًا، وموجودٌ دائمًا، وله السلطةُ دائمًا. لكنّه في النهاية نزعت منه السلّطة هو أيضًا، أليس كذلك؟ من يعرف؟ إلهكم «الحالي!» (والعينان اللتان التقتا بهذه الطريقة، والسماء، التي كانت بلا شكلٍ حتّى الآنَ، قد اتّخذت شكلًا، والحجر المغسول، الذي تتغيّر ألوانُه من تلقاءِ نفسِها، و.. و..)، إنّ الإيمانَ اللاحقَ -في الواقع- لم يَعُد خيالًا أو فكرة، ولكنّه نابع من «الإيمان الناتج عن الحُبّ» في وجود خلق جديد، كتحقّق للحظات والأوقات، انطلاقًا من كون المسيح إنسانًا، ثم وفاته، وقيامه، ومن ثمَّ وصوله إلى ما يمكن أن نطلقَ عليه الخلود؛ فهي رسالةُ سعادة، قال عنها معلنوها من ناحية إنّها لم تكن

تتطابقُ مع المعايير البشرية، ومن ناحية أخرى، فإنّ أولئك الذين آمنوا بها سيعيشون إلى أبعدَ من لحظات الفلسفة، أو الحقب، أو حتّى الأبدية الدينية. تلا ذلك حقبةُ قوةٍ ثالثةٍ، بعد نزعِ السلطةِ من كلٍّ من: إله اللحظة، وإله الأبدية، وإن كان ذلك قد تمَّ دونَ بذلِ مجهودٍ لدحضِ الاثنينِ، وكانت تلك القوّة الثالثة تتمتّع بحرية دنيوية بحتة، وهي ترتكز على شيء وَسَطيّ -فما الذي تفيدني به ثقافة «كايروس» (التي تنصحنا باستغلال الوقت المناسب لاتخاذ القرار)، أيُّها الإغريقُ! وما الذي تفيدني به سعادتكم في السماء، أيُّها المسيحيّون والمسلمون!- من أجل الوصول إلى نجاح وسطي، إلى حياة وحيدة ناجحة. إيمانٌ؟ حُلمٌ؟ رؤية؟ أقرب شيء، على الأقلّ في بداية تلك المرحلة في الأغلب، كانت الرؤية؛ إنّ أيَّ مفهومٍ تمَّ تفسيرُه في أيّ عقيدةٍ هو وهم، أو نوع من أحلام اليقظة المتحدية. لمَّا لم يكن هناك شيء يمكن تصوّره بعدي، فسأستفيد من حياتي إلى أقصى حدّ. وهكذا كان وقت هذه القوة الثالثة في الأقوال والأفعال إحدى.المميّزات، التي تتّصف بها أعمالُ «هرقل»، والحركات العالمية.

«كان»؟ أتعني، أنّ زمانَها قد مضى؟ كلّا، إنّ فكرة الحياة الكاملة الناجحة انطلاقًا من العمل ما زالت سارية، وستبقى مثمرة بالطبع للأبد. إلا أنّه في الوقت الحالي، يبدو أنّه لا يوجدُ ما يمكن أن نقولَه عنها، فالرواياتُ الملحميةُ وروايات المغامراتِ للرُّواد، الذين أخذوا حُلمَ البداية من حماسة الحياة، تَمَّ سردُها

بالفعل وتشكل بناء عليها نمط للحياة الناجحة بمفهومها الحالي -ويحدث في كلّ مرة تعديلٌ للصيغة المعروفة: «شجرةٌ نغرزُها ونعتني بها، وإنجابُ طفل، وكتابةُ كتاب»- وفي هذا السياق لا يمكن سوى سرد عدة قصص تحوي بدائلَ صغيرةً غريبةً أو فكاهية، في سياق أحداثها، على سبيل المثال نسردُ قصة شابّ، أتمَّ عامَه الثلاثين، متزوج من سيّدة، كان واثقًا أنّه سيظلُّ يحبُّها حتّى النهاية، ويعمل مدرسًا بإحدى المدارس الصغيرة بضواحي المدينة، التي يكتب لصحيفتها الشهرية بين الحين والآخر بعض التوصيّات لمشاهدة مسرحية أو فيلم، دون أن يكون له هدفٌ محدّدٌ للمستقبل (لا شجرة، ولا كتاب، ولا طفل)، الذي قال لأصدقائه ومعارفه ليس فقط الآن بعد أن أتمَّ عامَه الثلاثين وإنّما أثناء أعياد ميلاده الأخيرة التي مرّت، قالها لهم وعيناه تلمع فيهما لذّة الانتصار، قالها بيقين، إنّ حياته قد نجحت (قد تحمل تلك العبارة معانيَ أكثر بالسعادة إذا ما قرأناها في لغتها الأصلية: الفرنسية « j'ai réussi ma vie»- «لقد نجَحَت حياتي»، «أنجزت»). هل كانت لديه رؤية تاريخية حول الحياة الناجحة؟ أم أنّ ذلك يرجع مرة أخرى للعقيدة؟ لقد مرّ وقتٌ طويلٌ جدًّا منذ قيلت تلك الجملة، ولكن أيًّا كان ما يجول بخاطرنا حول ما حدث للرجل منذ ذلك الحين، فإنّه سيجيبُ الإجابة المتكررة نفسها التي جاءت ردًّا على تساؤلات الزائرين. إذًا فهي العقيدة. أيُّ عقيدة تلك؟ ما الذي يمكن أن يكون قد وقع لتلك الحياة الناجحة الشابّة؟

هل تودُّ أن تشيرَ إلى أنَّ يومك الناجح المزعوم، إذا ما قارناه بالحياة الناجحة، سيعطينا أكثرَ من مجرّد سخرية، أو خاتمة، أو صور زائفة؟ هل يختلفُ هذا كثيرًا عن شعار العصر الذهبيّ لروما، «اغتنم الفرصة» «carpe diem»، التي من الممكن أن تصبح الآن، بعد مُضيّ ألفي عام، علامة تجارية للنبيذ أو كتابة على قميص قطني أو اسم أحد الملاهي الليلية؟ مرة أخرى يعتمد الأمر على ترجمتك العبارة: «استغلّ اليوم» كما تمّ فهمُها في القرن المليء بالأحداث. «اختر اليوم» ممّا سيحوّل هذا اليوم إلى لحظةٍ نادرة، وعظيمة، ومناسبة. أو «دَعِ اليومَ يُثمِر» ممّا يقرّب حكمةً «حورس» القديمة بالفعل من مشكلتي مع اليوم. ولكن ما هو اليوم الناجح فعليًّا؛ لأنّك حتّى الآنَ حاولت فقط أن تعرفَ ما ليس فيه؟ ولكن أين يظلُّ، على الرغم من كلّ التحوّلات، وتغيير المسارات، والمعوّقات، وتردّدك الأزليّ، وتوقّفك أمام أصغر الموجات، ومحاولاتك المستمرّة في البَدء من جديد، أين يظلّ مع كلّ هذه الظروف خطُّ الجمال والنعمة، الذي -كما ذكرنا في السابق- يميّز اليوم الناجح، الذي -كما اتفقنا في السابق أيضًا- يدعونا إلى خوض التجربة من جديد؟ متى تبدأ في السير الخطوة تلو الأخرى في خطٍّ مستقيم، بدلًا من الارتباك الذي يصيبُك أمام إيجادِ حلٍّ للمشكلة، حتّى يكون في استطاعة «يومِك الناجحِ» الغامضِ، أن يبدأ في أن يصبحَ عادةً تضيء حياتَك، بدلًا من التردُّد ذهابًا وإيابًا بالأمور غير المهمّة، وعدم وضع حدٍّ واضحٍ

وقاطع؟ كيف يدورُ في مخيّلتك يوم كهذا؟ ارسم لي صورةً أوّلية له، أو قُم بوصفِ صور من هذا اليوم! احْكِ عن اليوم الناجح. دعنا نشعر برقصة اليوم الناجح. أطربني بأغنية اليوم الناجح!

هناك بالفعل أغنية، يمكنُها أن تحملَ هذا الاسم. يقوم «فان موريسون» بغنائها، وهو «المغنيّ المفضّل لدي» (أو أحدهم على الأقلّ)، ولكنّها في الحقيقة لها اسمٌ آخرُ، فهي مسمّاة على اسم مكان صغير مجهول في الولايات المتحدة، وتحكي -نعم هي تحكي- عن نزهةٍ بالسيارة في أحد أيام العطلات (يوم الأحد) -هذا اليوم الذي يبدو فيه نجاح اليوم أصعب من كلّ الأيام الأخرى- كانا اثنين، في الأغلب كانت تصحبه سيّدة، وكان يتحدّث بصيغة الجمع (ممّا يدلُّ على أنّ نجاح اليوم يُعدُّ حدثًا أعظمَ إذا ما تمَّ مشاركتُه مع آخرين بدلًا من الانفراد به): صيد الأسماك في الجبال، متابعة السير، شراء جريدة الأحد، متابعة السير، تناول وجبة خفيفة، متابعة السير، لمعان شعرك، الوصول في المساء، والسطر الأخير، هكذا تقريبًا: «لماذا لا يمكن أن تصبح كلّ الأيام مثل هذا اليوم؟» إنّها أغنية قصيرة جدًّا، ربّما تكون أقصرَ قصيدة، كانت موجودة من قبلُ، فمدّتُها لا تتجاوزُ الدقيقة، يغنِّيها رجلٌ كبيرٌ في السنّ نسبيًّا، لا يملك سوى بعض خُصلات الشعرِ الضئيلة، وهو يحكي عن هذا اليوم أكثر ممّا يغني، يمكننا أن نقولَ دون غناءٍ، دون نغم، دون صوتٍ، فهو يبدو كغمغمةٍ أثناءَ متابعته السير، ومع هذا كان يغنّي مفروود الصدر، وفي اللحظة

التي يكون فيها أكثر اتساعًا، يتوقّفُ فجأةً عن الغناء.

وربّما لا يمكنُ لخطّ الجمال والنعمة في هذه الأيام، أن يأخذَ هذا المنحنى السَّلِس كما كانت الحال في لوحة «هوجارت» من القرنِ الثامنَ عشرَ، الذي كان مفهومًا، في إنجلترا الغنية المتمتّعة بالحُكم الذاتي، على أنّه وفرة كبيرة جدًّا من الزمن. ولكن ألا يمكن أن نترجمَ «النعمة» „grace“ بشكل مختلف؟ ألا نتشابه في ذلك مع اللوحة في أشياء كثيرة، حيث نتوقّفُ، ونسقطُ، ونتعثّرُ، ونسكت، ونصمت، ثم نبدأ من جديد، ونتوسّع، ولكنّنا في النهاية، كما كانت الحال دائمًا، نهدف إلى الوَحدة والكمال؟ تمامًا كما يمكن أن ينطبق علينا الآن في نهاية القرن العشرين، حيث إنّ الفكرة حول اليوم الوحيد الناجح تأخذ مساحةً أكبرَ من تلك التي تدور حول فكرة الخلود أو فكرة الحياة الناجحة إجمالًا، بالطبعَ ليس فقط بمعنى أنّ «الآنَ هو الآنَ» وبالطبع ليس بمعنى «فقط عِشِ اليومَ!»، ولكن كذلك بالأمل؛ كلّا، بالشوق؛ كلّا، بالاحتياج، أن نصل بالبحث في العناصر الخاصّة بحقبة زمنية لنموذج حقبة أكبر، أكبر بكثير، أكبر حقبة ممكنة، هل يمكن تخيّل مثل هذا النموذج؟ لأنّ حياتي، بعد اختفاء كلّ الأفكار السابقة حول الزمن، الآنَ، من يوم لآخرَ، دونَ وجود معايير ثابتة (حتّى وإن كان هذا، من أجل تَركِ شيء للحياة)، دون وجود ترابط (معك، مع هذا الشخص المارّ)، دون أدنى يقين (أن اللحظة السعيدة التي عشناها اليوم سوف تتكرّرُ غدًا أو في أيّ يومٍ آخر)، قد يكون

محتملًا في مدّة الشباب وقد يصاحبها الراحة أحيانًا (أو يسترشد بها؟)، ينقلبُ في كثير من الأحيان إلى محنة ومع مرور السنين يتحوّل إلى سخط. وفي بعض الأحيان أسخط على نفسي، عندما لا نستطيع توجيه سخطنا للسماء، أو لأيّ ظروف دنيوية، أو لأيّ جهة ثالثة، بخلاف ما كان يحدث في مدّة الشباب. تبًّا، لماذا لم أعد أرانا الآن معًا؟ اللعنة، لماذا لم يعد انسياب الضوء في الساعة الثالثة عصرًا إلى الوادي، أو دوي القطار على القضبان، أو رؤية وجهك يُعدُّ حدثًا بالنسبة لي، مثلما كانت تعني لي صباح اليوم، وكنت أتخيّل أنّها ستظلّ كذلك في المستقبل البعيد أيضًا؟ تبًّا، لماذا قلت قدرتي أكثر ممّا مضى على الإحساس بلحظات اليوم، والحياة، والإمساك بها، وإدراكها، على عكس الصورة الموجودة في أذهاننا عن مُضيّ العمر. اللعنة، لماذا أشعر بأنّني مشتّت، بكلّ ما تحملُه الكلمة من معنى؟ تبًّا، اللعنة، تبًّا. (أنظرُ بالمناسبة، إلى الحذاء الرياضي الموضوع بالخارج ليجفَّ، على عتبة نافذة سقف المنزل الجملون، الخاصّ بابن الجيران المراهق، الذي رأيناه ليلة أمس تحت الأضواء الكاشفة في الملعب الموجود بضواحي المدينة، عندما كان ينتظر أن يمرّر أحدهم الكرة إليه، وينتف قميص اللعب الخاصّ به).

فهل يمكنك أن تعتبر اليوم الناجح هو القوة الرابعة الآن، بعد الأفكار التي عرفتها حول اللحظة الناجحة، أو حول الحياة الأبدية أو الفريدة الناجحة؟ ويدفعك إلى أن تنسبَ عطرًا لا يتبخّرُ لليوم

الناجح، بغض النظر عمّا يحدث لك غدًا، إلا أنّ هذا العطرَ يستمرُّ بطريقة أو بأخرى؟ وهنا ينبغي أن نطرح هذا السؤال مرة أخرى: كيف تتصوّر اليوم الناجح، بتفاصيله، من وجهة نظرك؟

ليس لديّ تصوّر واحد عن اليوم الناجح، ولا واحد. توجد لديّ فقط الفكرة، وهذا يجعلني أيأس تقريبًا، في أن نضعَ خطوطًا أوّلية للصورة، وأن نجعلَ النموذج يتّضح، وأن نتتبّعَ بصيصَ الأمل الأصليّ؛ أن أحكيَ عن يومي بطريقة سهلة ونقية، كما تمنّيت من البداية. ولمّا كان لا يوجد سوى الفكرة، فإنّ السرد لا يمكن أن يكونَ سوى حولِ تلك الفكرة. «أريد أن أسردَ لك فكرة». ولكن كيف يمكن أن تسردَ الفكرة؟ حدثت دفعة (أتّهم مرارًا وتكرارًا، بـ«قبح» هذه الكلمة، وهي كالعادة لا يمكن استبدالها بأيّ كلمة أخرى). هل أنارت الدنيا؟ هل اتّسع المكان؟ هل تأثّرت؟ هل اهتزّت؟ هل هبّت رياح دافئة؟ هل أنارت؟ أصبحت الدنيا نهارًا في نهاية اليوم؟ كلّا، إنّ الفكرة تقاوم رغبتي في السرد. فهي لا تتيحُ أمامي تصوُّر شكل للهروب. وعلى الرغم من هذا فقد كانت متجسّدة، أكثر تجسيدًا من أيّ صورةٍ أو تصوّر آخرَ، فقد تمّ دمجُ كلّ حواسّ الجسم المبعثرة عن طريقها في صورة طاقة. الفكرة كانت: لا توجد صورة، مجرّد ضوء. نعم، تلك الفكرة لم تكن بمثابة عودة إلى الماضي حيث قضيت طفولتي في صورة جيدة، وإنّما كانت تعدُّ ضوءًا ينيرُ لي الطريق إلى المستقبل. وهكذا، إذا كان يمكن سردُه، في صيغة المستقبل، كحكاية مستقبلية،

على سبيل المثال: «في اليوم الناجح، سيتكرّر الصباح مرة أخرى في منتصف النهار. سوف تكون هناك دفعة لي، دفعة مزدوجة: دفعة أبعد منّي، وأخرى إلى أعماقي. وفي نهاية اليوم الناجح سوف أكون قادرًا على رفع رأسي عاليًا، وأقول: لقد عشت الحياة مرة، كما يجب أن تُعاش؛ بوجه، على عكس المعتاد. نعم، الفكرة لا تتعلّق بأيام الطفولة الخالية، وإنّما تتعلّق أكثر بيوم من أيام البالغين، يوم آتٍ، والفكرة كانت تتعلّق بالتصرّف، كانت تحكي عن المستقبل البسيط، كما يجب أن يكون، الذي بدت فيها أغنية «فان موريسون» كما لو كانت قد تُرجِمت بهذه الطريقة: «في اليوم الناجح يجب أن تكون جبال «كاتسكيل»، هي «كاتسكيل»، يجب أن يكون التوجُّه إلى مكان الراحة، يعني التوجُّه إلى مكان الراحة، ويجب أن تكون صحيفة الأحد، هي صحيفة الأحد، ويجب أن يكون حلول المساء، يعنيّ حلول المساء، ويجب أن يبقى بريقك بجانبي...». ولكن بالطبع: كيف يمكن أن نحقّق مثل هذا كلّه؟ هل تكفي رقصتي الخاصّة هنا، أم هل يجب أن نترجمَ «النعمة»، "Grace" "Grazie"، ترجمة إضافية كـ«رحمة» مثلًا؟ وماذا يمكننا استنتاجُه، من أنّه بمجرّد من أن تلوح لي فكرة اليوم الناجح، لا تستمرّ لمجرّد ساعة، وإنّما تمتدُّ لتصبحَ حقبةً كاملةً من اليأس والحيرة؟ (أم هل يجب أن أقول بدلًا من تلوح لي «تظهر كالشبح» أو «تضلّلني»؟) لقد أفسح وحش «الوجوم» الطريق أمام الصمت. وفي اليوم المشرق، عاد الحُلمُ

حول عشّ الطائر المكوّن من القشّ، إلى الأسفل على الأرض، حيث وقف الفرخ الصغير الصاخب العاري. تعطي الشظايا اللامعة الموجودة في أحجار الجرانيت الموجودة على الرصيف بريقًا، عند اقتراب العيون منها. ذكرى اللحظات الدافئة التي منحته فيها والدته القليل من مالها لشراء شريط جديد للساعة في أحد الأيام، وذكرى القول المأثور «يحبّ الربّ المانح المبتهج». الجناح الذي كان يرعى «الفرخ» الصغير أثناء تحليقه في الشارع، كان يرعاه أيضًا. وكانت تظهر الكثير من الأنماط المتداخلة لنعال الأحذية، التي تركت آثارها بعد أمطار الأمس، على الرصيف الأسفلتي لضاحية «إيسي-بلاين». تأرجحت فقرات الطفل الغريب عند المرور به. برج كنيسة «سان جيرمان»، والمقاهي، والمكتبة، والسينما، وصالون تصفيف الشعر، والصيدلية، كانت تقف كلّها هناك في يوم آخر، مترفّعة عن «تاريخ اليوم الجاري» بحالاته المزاجية كلّها. وكان الخوف الشديد ليلة البارحة، كان كما كان. وزجاج النافذة المنثور، كان كما كان. والاضطرابات الموجودة على الجانب الآخر من القوقاز، كانت كما كانت. يدي ومفاصلها، كانت. وكان هناك الدفء الذي تشعّه ألوان الأرض على الطريق الموازي لخطّ السكك الحديد المتّجه إلى «فرساي». والحُلم الذي طالما راودني، حول كتاب شامل وواسع الانتشار، عاد مرة أخرى أو مجدّدًا، بفعل دفعة، إلى حيّز الوجود، هنا وهنا وهنا، كان يحتاج فقط لأن تتمّ كتابته. ركضت منغولية، أو قدّيسة، حاملة حقيبة

ظهر، تملؤها النشوة أو ربما الخوف، فوق خطوط عبور المشاة. وفي حانة إحدى محطّات الضواحي الأخرى وقف في مساء اليوم ضيفٌ واحدٌ، بينما كان النادلُ يقومُ بتجفيف الكؤوس، وكان قطُّ الحانة يلعبُ بإحدى كرات البلياردو بين الطاولات، ورقصت أوراقُ الشجرة الوردية المتبقّية من خلف لوح الزجاج المتّسخ، الذي أضاء كالعادة بفعل القطارات المارقة من خلف أوراق الشجر المتساقطة فوق مزلقان القطار، وهنا تلحُّ فكرةُ البحث عن كلمة أخرى لوصف كلّ هذا، كما لو كان اكتشاف كلمة واحدة تُقرّب الموضوع، سيجعلُ هذا اليوم بالكامل ناجحًا، على طريقة أنّ «كلَّ شيءٍ واضحٌ (لو ترجمناه بطريقتنا الحديثة: كلّ شكل هو ضوء)».

نعم، وأخيرًا اندمج صوتٌ مظلمٌ وضعيفٌ وتبدو عليه المعاناة، وبصرف النظر عن الاتساق وعن اللحظة الصحيحة، صوت ثالث، كما لو كان صوت الراوي، أو كما لو كان آتيًا من الأسفل، أو من الخشب السفلي، أو من الخطوط الجانبية، في محاولتنا لليوم الناجح، أخيرًا، أم لسوء الحظّ، يأتي للإضرار به؟

لحُسنِ الحَظّ، أم للإضرار به؟ «الاعتذار» مطلوب هنا، منذ البداية على أيّ حالٍ، في هذا الموقف؛ لأنّه في ما يتعلّق بالبقيّة يجب أن نعود مرة أخرى للمكر. هل تدور أغنية «فان موريسون» حول اليوم الناجح، أم أنّه كان فقط مجرّد يوم سعيد؟ أمّا بالنسبة لما

يتعلّق باليوم الناجح، فإنّه عادة ما يرتبط بأنّه يكون يومًا خطيرًا، مليئًا بالمعوّقات، والصعوبات، والكمائن، والتعرّض للمشكلات، والاختناقات، يمكن مقارنته بأيام «أوديسي» في رحلة عودته إلى منزله، والتي يستخلص المرء في نهاية تلك القصة في كلّ مرة، وكما هي العادة كلَّ مساء، الذي يكون مليئًا بالطعام والشراب والارتقاء «الإلهيّ» لسرير إحدى السيدات، ممّا يُعدُّ احتفالًا. إلا أنّ الأخطار التي حدقت بيومي، لم تكن الأحجار المقذوفة من قبل العملاق، ولم تكن كذلك الأشياء المعتادة، وإنما كان -في ما يتعلق بي- الخطر هو اليوم نفسه. وربّما كانت الحال هكذا دائمًا، وبصفة خاصّة في العصور والمناطق الأخرى من العالم، التي كانت تبدو فيها الحروب والمشاق غير واردة (مثلها في ذلك مثل اليوميّات التي تحكي عمّا يطلق عليه العصور الذهبية، التي تبدأ في العادة (بالنيّات) الحسنة لنجاح اليوم، وتنتهي في المساء بإخفاقه). ولكنّها أصبحت تمثّل حالة، تمثل نضج الحديث، متى كان هذا اليوم مختلفًا عن يومي، يومك، يومنا، من قبل؟ ألم يكن ممكنًا، أنّ مشكلته كانت ستصبح أكثر حداثة وحدةً من الوضع الحالي، إذا أصبحت في المستقبل الذهبي؟ إنّ «متطلّبات اليوم الخاصّة»، واجباته، وعراكه، وألعابه نضعها جانبًا: الأيام فقط بمفردها، أيام الراحات، كلّ لحظة أصبحت تمثّل فرصة، لنا هنا على الأقل، في المناطق التي يعمّ فيها السلام، كتحدٍّ، أو صديق أو عدو محتمل، أو ضربة حظ. ومن أجل النجاح، أو الفوز، أو التأكّد

من إثمار هذه المغامرة، أو المبارزة، أو ببساطة التحدي بينك وبين اليوم يجب أن يتوافر الشرط اللاحق، وهو ألا يتدخّلَ فيه عامل ثالث مؤثّر، مثل العمل، أو الكيفية المثلى لقضاء الوقت، ولا حتّى رحلة السيارة المتأرجحة لفان موريسون -نعم يبدو الأمر كما لو كانت أبسط المهام مثل «تنظيم رحلة سيرًا على الأقدام» لا يمكن دمجها مع اليوم الناجح- كما لو كان هو في حدّ ذاته المهمّة التي يجب أن أقوم بها (والعودة بها إلى المنزل، لتكون تحت السيطرة) ومن الأفضل أن يكون في التو (الآن) واللحظة، ويستثنى من ذلك الاستلقاء، الجلوس، الوقوف، وعلى أقصى تقدير المشي ذهابًا وإيابًا، دون حَراك إلا بالنظر أو السمع أو ربّما فقط التنفّس، الذي يتمّ دونَ إرادة، مثلُه في ذلك مثل أيّ خطوةٍ أخرى تتمُّ في مثل هذا اليوم، تمامًا كما لو كان نجاح هذا اليوم مرهونًا بعدم الإرادة. وبهذه الطريقة هل يمكن أن ينجح؟

وهكذا يمكن وضع تصوّرين مختلفين كلّيًّا لمغامرات كلّ شخص في يومه: في الأول على سبيل المثال، ننجح في اللحظة الأولى بعد الاستيقاظ، في التخلّي عن الأحلام التي تصرف الانتباه عن الطريق بثقلِها، ونأخذ فقط الأحلام التي يمكن أن تكون حملًا يبطئ اليوم في خضمّ الحياة؛ في هواء الصباح، تنمو الأجزاء المختلفة من الأرض معًا؛ في الوقت نفسه الذي تتساقط فيه قطراتُ المطر الأولى على أوراق شجيرة في أرض النار، بعد ذلك يتمّ فكُّ السحر عن الضوء الغريب في مدّة ما بعد الظهيرة، من

لحظة إلى أخرى، بمعرفة السراب الذي قمت بنسخه بنفسك؛ ونتيجة لذلك، فإنّه يعدُّ أيضًا من حُسن حظّنا أن نتركَ المساءَ يعمُّ، مع عيون مفتوحة حتّى وقت الشفق، وبعد ذلك تكون قادرًا على سرد أشياء كثيرة عن يومِك، على الرغم من عدم حدوثها. إنّها تلك اللحظة التي لم يقع فيها شيء، غير ظهور الرجل الكبير في السنّ بمريلته الزرقاء في الحديقة الأمامية! وماذا عن التصوّر الآخر المقابل؟ يجب أن يكون قصيرًا، على الأرجح يكون -على سبيل المثال- هكذا: مشلولاً بالفعل منذ الفجر، يجرّ حزمة من البؤس، في لحظة مغادرته قاربه المسمّى «مغامرة اليوم» انقلب في مياه الصباح، ولا يستفيق حتّى في وقت الظهيرة الهادئ، ويظلّ في تلك الأثناء في مكانه، لا يبرحه، حتّى النهاية في منتصف الليل، يظلّ عند نفس المكان الذي كان ينبغي أن يغادر منه بطلنا «في الصباح الباكر»، لا توجد حتّى أيّ كلمات أو صور يعبّر بها عن فشله أثناء النهار، اللّهمَّ إلا من بعض الادّعاءات التي أصبحت قديمة ومرهقة.

لتتمكن من أن تطلق على يومك أنه كان ناجحًا، فمن الضروري أن كلّ لحظة منذ الاستيقاظ حتّى النوم يجب أن توضع في الحسبان، وبتلك الطريقة، فإنّ كلّ لحظة تعدُّ اختبارًا ناجحًا (أو خطرًا تمّ اجتيازه) بالنسبة لك. ألا يلفت نظرنا هنا، أنّه بالنسبة للآخرين فإنّ كلَّ لحظة وحيدة تحتسب طبقًا لقواعدهم كيوم ناجح (ومفهومك له، يختلف عن طريقة استخدامه، فلديه شيء

عظيم)؟ عندما كنت واقفًا وقت الشروق بالنافذة، لمحت طائرًا صغيرًا بالقرب مني، وأصدر أحد الأصوات، كما لو كان يوجهه لي أنا، وكان هذا اليوم بالنسبة لي يومًا ناجحًا (الراوي الأول). «كان اليوم ناجحًا في تلك اللحظة، التي جاءني فيها صوتك عبر الهاتف ليعبر لي عن سعادتك بالرحلة؛ على الرغم من نيّتك، أن تكمل قراءة الكتاب منفردًا حتّى آخره» (الراوي الثاني). «لكي أقول لنفسي إنّ هذا اليوم ناجح، لم أكن أحتاج قط للحظة مميزة، كان يكفي أن أستشعر عند الاستيقاظ، نَفسًا عاديًّا، أو نسمة، un soufflé» (راو ثالث). «ألم يلفت نظرك أيضًا أن القرار حول اليوم الناجح قد اُتُّخِذ قبل بدئه فعليًّا؟».

نريد هنا على الأقل، ألا نأخذ اللحظة الفردية في الاعتبار، ونقرر على أساسها نجاح اليوم! (نريد أن نحتسب فقط اليوم عامّة). ومع ذلك، يجب أن تعطي اللحظات المذكورة -ولا سيما تلك الأولى التي تحدث أثناء الوعي الكامل بعد الاستيقاظ من ثُبات الليل الطويل- منهجًا أو تطبيقًا، لخطّ الجمال والنعمة. بهذه الطريقة، فإنّ نقطة انطلاق اليوم، يجب أن تمثّل أساسًا لانطلاقه في منحنى مرتفع، نقطة تلو الأخرى. فأثناء إنصاتي لإحدى النغمات، فإنّ نوع تلك النغمة يوضّح لي رحلة اليوم بالكامل. لا يجب أن تكون نغمة رنانة، وإنما من الممكن أن يكون أي نوع من الأصوات، مجرد أي صوت، المهم أن أكون ناجحًا في التقاط الصوت منذ البداية. ألم يكن صوت أزرار القميص عندما سحبتها

صباح اليوم من على أحد المقاعد، أحد أصوات الشوكة الرنانة الصباحية؟ نعم، وعندما قمت صباح الأمس بالإمساك بأول شيء بعناية وعينين مفتوحتين، بدلًا من أخذها دون وعي، ألم يمثل ذلك اللحن، الذي سارت عليه باقي نغمات اليوم؟ والشعور بالماء أو الهواء، صباحًا وهما يمران بالوجه، أم هل يجب أن نذكر هنا بدلًا من كلمة «الشعور» كلمة «الإدراك» أو الكلمة السهلة الأخرى وهي «الملاحظة»؟ على العيون، على الصدغَين، نبض اليدين؛ ألا يكون هذا هو المزاج الملائم، الذي يمكنني فيه التواصل مع باقي عناصر اليوم، وكيف أتعامل معها، وكيف تؤثّر فيَّ؟ (تمّ تأجيل الإجابة عن هذا السؤال مؤقّتًا). مثل تلك اللحظة الناجحة: الطاقة، الشعاع، المخزون -الذي يمنح الروح الطاقة، لنستطيع الاستمرار في هذا اليوم- لأن مثل هذه الثانية تعطي طاقة، حتّى إنّ السردَ عن اللحظة التالية، طبقًا للترجمة الحرفية لكلمة «لحظة» التي ذكرت مرة أخرى في أحد خطابات «بولس الرسول»، التي بدأت بـ«وبطرفة عين واحدة...»: وبطرفة عين واحدة من العين، تزرق السماء، وبالطرفة التالية للعين يترعرع العشب الأخضر، و... من منكم مرّ بتجربة اليوم الناجح؟ من عاش بالفعل يومًا ناجحًا؟ وعاش المشقة من أجل تتبع هذا الانحناء في الخط!

انتشرت غيوم الأنفاس للكلب النابح، الذي ظلَّ مختفيًا عن الأنظار، من خلال السياج الموجودة في السور. وارتجفت الوريقات المتبقّية على الشجر بفعل الهواء الضبابي. وتبدأ الغابة،

بعد محطّة القطار الخاصّة بالضاحية مباشرة. وكان الرجل الذي يقوم بتنظيف كابينة التليفون من الخارج أبيض البشرة، بينما كان الذي يقوم بتنظيفها من الداخل أسمر البشرة.

هل لو فاتتني أي من تلك اللحظات، هل يعني هذا، أن يومي كلّه قد فشل؟ هل سيتمُّ قطفُ تلك التفاحة الأخيرة الموجودة على الشجرة بعناية، أم أنّه سيتمُّ جذبُها من على الفرع بعنف؟ وهل ستكون جميع الأشياء المتطابقة بيني وبين اليوم باطلة؟ لا تستجيب لنظرات الطفل، وتتهرّب من نظرات المتسوّل، ولا تصمد أمام نظرات تلك المرأة (أو حتّى هذا السكير) وتكسر الإيقاع، وتسقط من اليوم. ألا توجد بداية جديدة متاحة لهذا اليوم؟ هل فشل هذا اليوم بشكل لا رجعة فيه؟ وهل ينتج عن ذلك، عدم تضاؤل ضوء النهار بالنسبة لي مثلما يحدث للآخرين، وإنّما -وهنا تكمن الخطورة- يهدّد بالتحوّل من شكله الساطع إلى الجحيم الذي لا شكل له؟ هل تتحوّل، على سبيل المثال، في مثل هذا اليوم الفاشل، كلُّ نغمة للأزرار على الخشب، التي تتكرّر الآن، وتصل إلى مسامعي على أنّها صوت مزعج؟ أو إدراكي، في لحظة من عدم الاهتمام الـ«عمياء»، واصطدامي بكأس مما يؤدي إلى تحطمها، يتخطى بذلك الإخفاق المعتاد، الكارثة -حتى لو كان المحيطون بي يقولون بطبيعة الحال إنها لم تكن كذلك- مثل اقتحام الموت لليوم الجاري. وهل ينبغي أن أعترف بذنبي كوني أكثر البشر تماديًا في هذا الموضوع، لأنني كنت أرغب

بمشروع اليوم الناجح، وأن أصبح إلهًا؟ هل فكرة هذا اليوم، أن يمرَّ لحظة بلحظة على المستوى نفسه وأن تحمل كلّ لحظة معها ضياءً يتّصل بضياء اللحظة التالية؟ هل كلُّ هذا يعدُّ شيئًا خارقًا من فعل الشيطان؟ وهل تصبح بهذا محاولتي للبحث عن اليوم الناجح في كلّ لحظة منه، محاطة بقصّة قتل أو محاولة قتل، أو قتل عشوائي، أو تصحّر، أو دمار، أو إبادة، أو تدمير للذات؟

أنت تقوم بالخلط بين اليوم الناجح واليوم الكامل. (فلنلتزم الصمت بشأن الأخير، كما لو كان من عند الإله). ربّما كان يومًا غيرَ مكتملٍ أكثر من باقي الأيام، وعلى الرغم من هذا صِحت في نهايته قاطعًا الصمت قائلًا: «ناجح!» يمكن تصوُّر هذا اليوم الذي تدركه بشكل مؤلم في الوقت نفسه، الذي تتوالى فيه لحظاتُ الإخفاق الواحدة تلوَ الأخرى، لأنّكَ في المساء ستجلسُ لتسردَ صولاتِك وجولاتِك أثناء لحظات نجاحك الدرامية. كونك تركت الكتاب الذي يمثّل الدقّة لتحديد الاتجاه الصحيح لهذا اليوم، كما أمكنك أن تستشعر من فورك أثناء قراءتك لسطوره الأولى، وراءك في القطار، لا يعني بالضرورة أن الصراع مع ملاك هذا اليوم قد انتهى بالسلب؛ حتى إذا لم تعثر على الكتاب مجدّدًا، فقد تستمرّ تلك القراءة الواعدة بطريقة أخرى؛ ربّما بحرية أكبر، وبشكل أكثر حرية. يبدو أنّه لنجاح اليوم عليّ أن أزنَ بطريقة أو بأخرى، مقدارَ ابتعادي عن الخَطّ المرسوم، سواء بإرادتي أو طبقًا لإرادة الحياة نفسها (أزن؟! كلمة أخرى غير جميلة، ولكن هنا يظهر

الشخص عميق التفكير، «أصنّفه»؟ «أقدّره»؟ «أقيسه»؟ لا توجد كلمات أخرى مناسبة). من الواضح أنّه يجبُ توافرُ شرط أساسي لنجاح رحلتي الاستكشافية بحثًا عن «اليوم الناجح» وهو التسامح مع نفسي، مع طبيعتي، مع عيوبي التي لا يمكنني إصلاحها، وكذلك وجود نظرة ثاقبة على ما أحصل عليه يوميًّا، في ظل وجود الظروف المواتية لذلك: الحيل المحيطة، النظرات الحاقدة، الكلمة التي تُقالُ في التوقيت الخاطئ وأتلقّاها (حتّى ولو تمّ قولُها من أيّ شخص وسط حشدٍ من الناس). ولهذا فالعنصرُ الأهمُّ بالنسبة لنجاح مشروعي، يعدُّ هو الحدود التي وضعتها لنفسي. كم عدد الإخفاقات، والإهمال، والغياب العقليّ، الذي أسمح لنفسي بتلقّيه؟ بعد أيّ عدد من العجز وعدم الصبر، بعد كم إخفاقًا في تحقيق العدالة، بعد كم مرة من إخفاق قبضتي، بعد أيّ عدد من الجمل التي نطقت بلا قلبٍ أو حتّى قيلت للتوّ (ربّما لم يتمّ نطقُها على الإطلاق)، بعد كم عنوانًا من عناوين الصحف والإعلانات التي تقفز أمام عيني، وتخترق أذنيَّ، بعد كم طعنة، بعد أيّ درجة من درجات الألم تظلُّ هناك فرصةٌ لوجود وميض، وَفقًا للعالم الأخضر والأزرق للعشب والسماء، وأيضًا «الرمادي» في حالات وجود الأحجار، في «اليوم» الذي ستؤثّر فيه «الأيام» عليّ وعلى المكان المحيط بي؟ أنا شديد القسوة مع نفسي، القليل جدًّا من عدم الاكتراث في إخفاق الأشياء، الكثير من المتطلّبات للعصر الذي أحياه، الكثير من الاقتناع بعدم أهمّية اليوم الحالي؛ ليس

لديّ مقياسٌ لنجاح اليوم. نعم، يبدو الأمر كما لو كان يجب أن يتضمّنَ سخرية خاصة، بالنظر إلى سخريتي في ما يتعلّقُ بالقوانين والحوادث اليومية –السخرية من العاطفة– وأيضًا إذا كانت لا تزال هناك إمكانية لوجود نوع من الفكاهة، فإنّه النوع الهزليّ. من عاش بالفعل يومًا ناجحًا؟

بدأ يومه بداية واعدة. فعلى حافّة النافذة اصطفّت مجموعة من أقلام الرصاص حادّة الأسنان إلى جانب حفنة من البندق بيضاويّ الشكل. هذا العددُ المتماثلُ من الأشياء المتراصّة ساهم في زيادة المتعة. وفي الحُلم، قال له طفلٌ كان يرقدُ في غرفة خاوية على الأرض الجرداء، عندما انحنى ناحيته: «أنت أبٌ جيّدٌ». وفي الشارع كان ساعي البريد يصدر صفيرَه المعتاد الذي يطلقُه كلَّ صباح. أمّا السيدة العجوز في المنزل المجاور، فقد أغلقت نافذة السطح لما تبقّى من اليوم. كانت الرمال ذاتُ اللون الأصفر التي يحملُها سرب الشاحنات متّجهةً في طريقها إلى منطقة البناء الجديدة، فقد كانت تحمل لون التلال الموجودة نفسه في تلك المنطقة أيضًا. بمفعول أثر الماء المتسرب من بين يديه أثناء لمسه لوجهه، عقد مقارنة بسيطة بين مياه الضاحية و»مياه «يوانيا» الواقعة على الجانب الآخر من سلسلة جبال «بيندوس»»، و»مياه «بيتولا» في مقدونيا»، ومياه ذلك الصباح في «سانتاندير»، الذي يبدو فيه المطر كما لو كان يهطلُ بغزارة، بينما تجده عند المشي في الخلاء كما لو كان نسيجًا رقيقًا، جفّ

بفعل تناغمِه. وقد ظلّ صوتُ طيّ صفحة الكتاب يرنّ في أذنه، في الوقت الذي سمع فيه الدقّات المتباطئة لقطار الضاحية من مسافة بعيدة، من خلف الحدائق، وفي الوقت الذي كان فيه صياح الغربان، وغثاء طائر العقعق فوق الأسطح يعمّ المكان، سمع كذلك صوت العصفور الوحيد. ولم يكن قد أبصر تلك الشجرة العارية التي تقف في الأعلى على حافة الغابة، والتي كان يستطيع أن يصل الضوء من خلال أغصانها المتشابكة، والتي تهتزّ في خفّة بفعل الرياح، إلى المنزل، في الوقت نفسه، الذي كانت فيه الطاولة التي كان يقرأ عليها، التي فُرش عليها مفرش مطرّز عليه حرف «S»، والذي يكون شكل تفاحة وحجرًا أسود صلدًا مموجًا. وبالنظر مجدّدًا -العمل من الممكن أن ينتظر، وأنا لدي وقت، أنا وهو، لدينا وقت- دارت هذه الفكرة حول اليوم الحالي في رأسه، ولاحظ كيف أنه كان يفكر في صمت، دون أن يبحث عن الكلمات: «الحياة المقدّسة!» وذهب إلى المخزن بالخارج، حيث أراد أن يقطع بعض الأخشاب لإشعال المدفأة، وكان هذا مناسبًا لهذا اليوم أكثر من تلك الليلة. وفي أثناء نشره لقطعة غليظة وصُلبة من جذع شجرة، انحشر المنشار فجأة، وعندها اضطرَّ لانتزاعه بعنفٍ، بعد أن انحشر تمامًا، ولم يستطع سوى أن ينتزع المنشار إلى الخارج، وقد خرج عن إيقاعه الثابت -وكان هذا يعدُّ انتزاعًا- ثم وضعه مجدّدًا في مكان آخر. وتكرّر هذا أكثر من مرة: تنحشر الصفيحة في الجذر القاسي، شدّ وجذب، حتّى لم يعد هناك رجعة

في إحدى المرات... ثم سقطت إحدى قطع الحطب التي يمكن أن نقول إنّها كانت ممزّقة أكثر من كونها مقطوعة، بقوة على قدم مدّعي البطولة في هذا اليوم، وبعد ذلك، عندما لم يتم إشعال النار في المرة الأولى بطريقة صحيحة، ورفضت أن تشتعل مرة أخرى، قام بلعن هذا اليوم المقدّس، بالألفاظ نفسها التي كان الجد الريفي معروفًا بها، اخرسي أيّتها الطيور، وانقشعي أيّتها الشمس. وبعد ذلك، كان من الكافي انكسار سنّ القلم الرصاص، ولم يقف نجاح اليوم فقط على المحكّ وإنما المستقبل كلّه! وعندها استوعب، أنّه على الرغم من حدوث إخفاق بسيط، فإنّ اليوم كان من الممكن أن يستمرَّ بصورة جيدة، إلا أنّ هذا الاستيعاب قد جاء متأخّرًا جدًّا، حيث إنّ يومًا جديدًا كان قد بدأ. وعندما نعيد التفكير في الفشل في إشعال النار، ألم يمثّل إزالة الجمر وسواده، في الوقت نفسه، لحظة غامضة من الترابط؟ وبعد أن أصبح على دراية بتلك الصورة العبثية مجملة، التي لم تكن شخصية فحسب، لو كان قد عرف بها من البداية، لكان قد تحلّى بالصبر. وانطلاقًا من هذا المفهوم، لم يمثّل سقوط الحطب على أصابع قدميه مجرّد ألم عادي فحسب، فقد لمسه معه شيء آخر، في المكان نفسه؛ شيء مثل اللعق الودود من قبل الحيوان الأليف. ثم كانت مرة أخرى مجرد صورة، صورة لجميع قطع الحطب منذ الطفولة حتّى تلك اللحظة، وهي تقع أو بمعنى أدقّ تتدحرج، أو تهوي، أو تتراقص، أو تتساقط مثل المطر على مقدّمات الأحذية،

والجوارب والأقدام مختلفة الأطوال للأطفال والبالغين؛ لأن كلّ لمسة أخرى كانت تعدُّ حانية وناعمة، لدرجة أنه لو انتبه، لكان قد اندهش منها. وبطريقة مشابهة، كان قد انتبه لاحقًا، لو أنه كان واقفًا على مسافة مناسبة، فإن تلك المعوّقات التي واجهته أثناء تقطيع الحطب، قد تسرد عليه إحدى الحكايات الرمزية، أو القصص الخرافية! من أجل نجاح يومه. في البداية كان علينا، بفعل دفعة صغيرة، أن نجد نقطة بداية لأسنان المنشار، أو شقًّا نستمرّ في النشر به. بعد هذا من الممكن أن يأخذ نشر الجذع إيقاعًا ثابتًا، واستمرّ الوضع مدّة طويلة وكان ممتعًا، واستمرّ في نشر جذوع الشجر الواحد تلوَ الآخر، مع نشارة الخشب التي تناثرت على الأجناب، وتجعّدت وريقات شجرة البقس المجاورة، وتساقطت تحت أسنان المنشار لتصدر طقطقة تتناغم وصوت نشر الخشب؛ تبع صوت جلبة صندوق القمامة، هدير المحرّك النفاث القادم من الأعلى. وبعد ذلك، وكقاعدة عامّة، إن كان قد استمرّ في مهمّته، فقد كان منشارُه سيصل إلى طبقة أخرى من طبقات الخشب. هذا كان يعني تغيير الإيقاع وإبطاءه، ولكن -وهنا تكمن الخطورة- دون توقّف أو تخطّي حركة المنشار من هنا لهناك، وحتّى مع تغيير الإيقاع، فيجب أن يتمّ الحفاظ على اعتدال الحركة الكلية للنشر؛ وإلا فسيُحشَر المنشار في منتصف العمل. يجب -إن كان هذا لا يزال في الإمكان- سحب المنشار خارج الجذع والبدء من جديد، وكما تعلمنا من الحدوتة، يفضل

ألا تتم المحاولة الجديدة في المكان السابق نفسه، وأيضًا ليس في مكان قريب منه، ولكن في مكان مختلف تمامًا، لأنّ... عندما تنجح المحاولة الثانية في تغيير المسار وتنجح عملية النشر في النصف الأسفل من الجذع، حيث كانت أسنّة المنشار بعيدة عن أنظار القائم بالنشر -في فكره أنّه قد انتقل إلى مكان آخر، يخطّط للمساء، أو ينشر بدلًا من الخشب أحد خصومه من البشر- ولكن هذا كان يهدّد إنهاء المهمّة، إن لم يكن فرع الشجرة الذي لم يلحظه الشخص (في الغالب على بُعد قيد أنملة من النقطة التي كانت قطعة الحطب التي تمّ قطعها حتّى الآنَ ستقع من تلقاء نفسها في حجر النشار)، هكذا يلتقي بتلك الطبقة الرفيعة جدًّا والصُّلبة جدًّا، التي يصطدم فيها الصُّلب بالحجر، أو المسمار، أو العظام وبذلك تفشل المهمّة كلّها في اللحظة الأخيرة، إن جاز التعبير. باختصار لآذان ثالثة يعتبر هذا غناءً -للقائم بالنشر هي أشبه بموسيقى القطط- وانتهى الأمر. على الرغم من أنّه كان قريبًا جدًّا من فكرة أن يكون القيام بنشر الأخشاب في حدّ ذاته، الوجود مع الأخشاب هناك، استدارتها، رائحتها، ونمطها، لا شيء سوى قياس المادة هناك، بما في ذلك النظر إلى خصائصها ومقوماتها، في الوضع المثالي تجسيدًا لحلم كان يدور حول زمن عدم الاهتمام. تمامًا مثل القلم الرصاص الذي انقصف سنه... وهكذا، وهكذا من الأحداث التي تقع في اليوم. لهذا فقد اعتقد -فكر بأثر رجعي- أنّ محاولة إنجاح اليوم تتعلّق بوجود الحضور

الذهني لتعديل مسار التفكير في تلك اللحظات التي تضمّ المِحن، والألم، والفشل -والتعثر والبعد عن المسار- فقط انطلاقًا من الوعي المتحرّر من الضيق، الآن على الفور، وفي غمضة عين، أو مجرّد التفكير في ما يمكن أن يحدث ليجعل اليوم يأخذ تلك الدفعة، كما لو كان ذلك مطلوبًا من أجل «نجاحه».

هل يبدو بعد كلّ هذا يومك الناجح مثل لعب الأطفال؟

لا يوجد ردّ على هذا السؤال.

أصبح الوقت ظهرًا. ذاب الصقيع الذي تكون في الليل حتّى في الزوايا الظليلة للحديقة، ومع استقامة الأعشاب بعد انحنائها، هبّت رياح لطيفة عليها. ساد الصمت، فالصورة كما يمكننا أن نتصوّرها، أثناء السير تحت أشعة الشمس على أحد الطرق الريفية الخاوية إلا من بعض الفراشات الزهرية، التي لاحت فجأة من الفراغ، وعادت لتصبح قريبة جدًّا من السائر على هذا الطريق، حتّى إنّه يكاد يجزم أنّه يسمع طنين أجنحتها في قوقعة أذنيه، التي كانت تنتقل معه كلّما خطا خطوة. للمرة الأولى سمع، عند دخوله لهذا المنزل غير المأهول تقريبًا بالسكّان، دوي أجراس الكنيسة في وقت الظهيرة، كما سمع أيضًا ناقوس الكنيسة الأخرى الواقعة على أطراف الضاحية المجاورة (الذي بدأ، مثلما هو معتاد هنا، دون فواصل أو ثغرات تفصل بينهما على الجانب الآخر من الشارع)، وبنغمة ممتلئة بالحياة: نداء من أجل تجميع

كلّ المتفرّقين من كلّ الاتجاهات. عادت صورة الحلم مرة أخرى، حيث كانت الجبال الرملية تحيط بمدينة باريس العظيمة الواقعة في الوادي السحيق، والتي انطلقت أثناءها نداءات المؤذّنين من فوق مآذن المساجد لتخترق صمتَ ساعة الغروب. ألقى نظرة لاإرادية من فوق السطر الذي كان قد توقّف عنده، وخرج مع الهرّة إلى الخارج، عابرًا الحديقة، في خطّ طويل، في الوقت الذي خطر على باله، كيف أنّ هرّة أخرى كانت قد أعطته الإنذار الأول للمطر، عندما هرعت مسرعة مع قطرات المطر الأولى التي نزلت على فروتها، لتحتميَ بسقف البيت الأماميّ. أدار نظره، وتأمّل، كما كان يفعل منذ عدة أسابيع يومًا بعد يوم، ثمرة الكمثرى الضخمة، التي تُعدُّ الثمرة الأخيرة المتبقّية في الحديقة على الشجرة الخاوية، وشعر بثقلها عندما أمسكها براحته، كما لاحظ كذلك على الناحية الأخرى من الشارع في الجوار، فتاة صينية سوداء الشعر، تحمل حقيبتها المدرسية التي عجّت بالألوان المختلفة على ظهرها، ولم تبدُ أنّها متعبة أبدًا من مداعبة كلب ألاسكا ذي عينيين زرقاوين فاتحتين من خلال السياج (ودون أن يسمعه، بدا له، كما لو كان يسمع صوت همهمة الكلب عالية)، واستدار بنظره بضع درجات أخرى، حيث رأى، في المسافة الفاصلة بين المنازل عند مفترق الطرق، انعكاس الشمس من أحد القطارات المارقة الذي عكس أشعة الشمس لحظيًّا على العشب، عندما بدا له وجود مقعد فارغ في إحدى مقصورات القطار، وكان ممزّقًا

بفعل سكين، وتمّ إصلاحُه بعناية أسطورية بوساطة إبرة لإعادته لوضعه الأول، وشعر وهو على البُعد كما لو كان ممسكًا باليد التي قامت بحياكته. وهكذا خطر أمواته على باله؛ نظر إليهم، كما نظروا هم إليه، لم يفعلوا شيئًا سوى الجلوس والنظر بتفهّم، بعكس ما كانوا عليه أثناء حياتهم. ماذا كان يمكن إنجازه، أو استكشافه، أو التعرّف عليه، أو إعادة استكشافه في يوم واحد أكثر من هذا؟ انظروا إلى هنا: ليس ملكًا للخلود، ولا ملكًا للحياة (وإذا كان موجودًا فهو «سري») بل هو ملك لليوم! والغريب هنا كان فقط، أنّه عند هذه النقطة كان يكفي حدث صغير ليسقطه من فوق عرشه. وبالنظر إلى الرجل الذي يسير في الشارع الجانبي، حاملًا معطفه فوق يده، والذي ربت جيوبه، وسرعان ما استدار عائدًا مرة أخرى، وبدا عليه كما لو كان خرج عن شعوره. توقّف! لكنّه ما إن وصل إلى قمّة غضبه، لم يستطع التراجع مرة أخرى: هناك رأى، المنقار الأصفر للعصفور الصغير! وفي آخر الطريق ظهرت الحافة البنية لأحد النباتات التي ما زالت تقف منفردة هناك! وتلك الورقة التي تسقط من الشجرة على أحد الخيوط غير المرئية وتصعد مرة أخرى إلى الأعلى، كما لو كانت تنظر إلى أشعة الشمس في أمل مثل التنين ذي الألوان المبهجة! والأفق الذي فاق سواده سربًا ضخمًا من الكلمات الرنّانة التي لا توحي بأيّ شيء في النهاية! توقّف، اصمت! (الغضب كان يعني بالنسبة له الذعر). ولكن نقطة ومن أول السطر، النهاية هي

-القراءة، النظر، وجوده في الصورة، واليوم- لم يعد يستمرّ في سيره. وماذا الآن؟ وفجأة، وبعد ظهور الكثير من أشكال الغضب وألوانه، قبل المساء بكثير، وجد الموت طريقه إلى هذا اليوم. شوكته ظهرت فجأةً أثناء اليوم المليء بالمفارقات. هل تبقت بعد ذلك فكرة أكثر رعونة عن اليوم الناجح؟ ألم يكن من الواجب أن تنطلق محاولة البحث عنه من منظور مختلف تمامًا، مثل الكوميديا السوداء؟ ألم يكن من الممكن وضع خط يجب اتباعه لإنجاح اليوم، حتى وإن كان يقودنا عبر متاهة؟ لكن ألا تعني، إعادة المحاولة مرات ومرات بطرق مختلفة، وجود فرصة خاصة لنجاح اليوم؟ تلك المحاولة يجب أن تتمّ. كون اليوم (هذا الشيء المدعوّ «يومًا») قد أصبح الآن عدوّي اللدود، لا يمكن تحويلُه لشريك مفيد بالنسبة لي في المنزل والطريق، كنموذج مضيء، أو عطر مستدام الرائحة، هناك اتهامٌ لـ«اليوم الناجح» بأنّه يومٌ شيطانيٌّ، من قبل الشيطان، من قبل الفوضى، رقصة متخفية لا تخفي وراءها شيئًا، لعبة لسان خادعة يأتي بعدها مباشرة الالتهام، سهم يحدّد الاتجاه، وعند اتّباعه تنغلق الحلقة: من الوارد، هو كذلك، ربّما لأنّني -مع كلّ الإخفاقات التي صادفتني حتّى الآن أثناء محاولاتي لإنجاح اليوم- لا يمكنني استيعاب ذلك، لا أستطيع القول، ولا حتّى الآن، ولن أستطيع أن أقول، إنّ فكرة اليوم الناجح مجرّد خيالات أو أوهام، ولا يمكن أن تكون الحالُ كذلك بالفعل. إلا أنّني على ما يبدو أستطيع أن أقول، إنّ الفكرة

بالفعل هي مجرّد فكرة فقط، لأنّني لم أقرأ عنها أو أفكّر فيها، بل وردت بخاطري، عندما احتجت إليها، مع الدفعة، التي طالما آمنت بها، مجرّد فكرة من الخيال. الخيال هو عقيدتي، وقد تشكّلت فكرة اليوم الناجح في أوج لحظات الخيال، وكانت تشعّ بداخلي بعد كلّ انكسار من الانكسارات الألف التي مررت بها وتحفّزني على البَدء في محاولة جديدة لـ«يوم ناجح»، كانت تتبلور بسرعة في خيالي في صباح اليوم التالي مباشرة (أو ربّما بعد الظهيرة)، مثلها في ذلك مثل ما جاء في قصيدة موريكس الوردة «تضيء الطريق»، واستطعت بفضلها دائمًا أن أبدأ بداية جديدة، يجب أن تتمَّ محاولة إنجاح اليوم، حتّى وإن ظهر في النهاية أنّ تلك الثمرة كانت خاوية أو جافّة؛ إذًا، فقد عرفنا على الأقلّ أنّ هذا الجهد عديم الجدوى لم يكن ضروريًّا ويمكننا توفيره مستقبليًا، وبعد كلّ هذا هل يصبح الطريق خاليًا وممهدًا أمام شيء جديد كلية؟ وقد اكتسبنا أيضًا خبرة أخرى: إنه حتى وإن لم يقع أي شيء مميز في اليوم (حيث لا تلعب مثلًا الأضواء المتغيرة، أو الرياح، أو الطقس دورًا) فإنه أيضًا يعني الوصول إلى الرضا التام. لم يقع شيء، ولم يقع شيء مرة أخرى، ولم يقع شيء مرة ثالثة. وماذا فعل هذا اللاشيء، واللاشيء مجددًا؟ كان له أثر. كان هناك الكثير الذي يمكن عمله حتّى وإن لم تمتلك سوى اليوم، أكثر، أكثر بكثير، بالنسبة لي ولك. وكان هذا هو محور الحديث هنا: اللاشيء الذي يملأ أيامنا، علينا هنا أن ندعَه «يثمر»، من الصباح

حتّى المساء (أو حتى منتصف الليل؟). وأنا أكرّر: الفكرة كانت نورًا. الفكرة نور.

سواد بِركة الغابة التي لا اسم لها. سحب الثلج فوق الأفق في إحدى مناطق فرنسا. رائحة أقلام الرصاص. ورقة نبات الجنكة على صخور حديقة سينما «La Pagode». السجادة الموجودة في أعلى شباك في محطة قطارات «Vélizy». مدرسة، نظارة أطفال، كتاب، يد. صوت الهواء وهو يمرّ على الجباه. وأول مرة هذا الشتاء، صوت الطقطقة العالية التي يصدرها الجليد تحت نعال الأحذية. بدأ يهتمُّ بنوعية الضوء الخاصّة في أنفاق السكك الحديدية. القراءة وهو جالس القرفصاء، بالقرب من العشب. أثناء جمع الورق المتساقط يشمّ بأنفه فجأة رائحة السنة المنقضية. صوت القطار، وهو يدخل إلى المحطّة، يجب أن نطلق عليه اسم «خفق» (وليس «طرق»). والورقة الأخيرة التي تسقط من الشجرة لا تصدر «طقطقة» وإنما «تفرقع». وشخص غريب يتبادل معه السلام بتلقائية. ومرة أخرى السيدة العجوز وهي تجرّ خلفها عربة التسوّق الصغيرة في اتجاه سوق البلدة الأسبوعي. وعدم معرفة سائق المركبة الغريب عن البلدة بالطريق كما يحدث عادة هنا في المكان البعيد عن المدينة. ثم في الغابة، اخضرار الطريق في الغابة، الذي كان كثيرًا ما يسلكه مع والده عندما كان يريد مناقشة أمر ما، والذي كان يحمل اسمًا معيّنًا في لغته الخاصّة «zelena pot»، أو الطريق الأخضر. ثم في الحانة التي تقع على

مقربة من كنيسة القرية المجاورة، الرجل المسنّ، الذي يرتدي سلسلة الساعة الخاصّة بالجد والتي تتدلّى في خطّ مموّج من بطنه إلى داخل جيب البنطلون. وتجاهل تلك النظرة الشريرة لأحد كبار السنّ. وشعار «شكرًا على الإزعاج» (بدلًا من عدم الرغبة فيه)، سرى هذا التحوّل مرة واحدة. ولكن لماذا في منتصف وقت ما بعد الظهيرة الممتع، الخوف من باقي اليوم، لا شيء آخر سوى اليوم؟ كما لو لم يكن هناك مخرج للساعات المتبقّية («اليوم سيقضي عليّ!») سند السُّلّم على شجرة ما قبل الشتاء، وما المشكلة؟ ازرقاق الزهور في عمق العشب حول سدّ السكك الحديد، وما المشكلة؟ تعثر، فزع، أي نوع من أنواع الخوف، يطرد الصمت / السكوت المرح شيئًا فشيئًا. الجنّة تحترق. وعلى الجانب الآخر يظهر مجدّدًا، أنّه لا توجد وصفة محدّدة من أجل إفشال «اليوم» أو إنجاحه. «أيّها الصباح!»، هذا النداء، لا توجد استجابة له. القراءة تنتهي، اليوم ينتهي؟ الكلام ينتهي، اليوم ينتهي؟ وحالة الصمت تلك تستبعد أيضًا وجود أيّ دعاء، إلا إذا كان دعاءً غير معقول على شاكلة «صبّحني»، «بكّرني»، «ابدأني من جديد». من يعلم، ربما كانت بعض حالات الانتحار المحيرة نتيجة لإحدى المحاولات، التي بدأت بتفاؤل شديد، وكانت تبحث عن الخطّ المثالي لنجاح اليوم. ولكن ألا يفصح لي عدم نجاح اليوم عن شيء آخر؟ ربّما كان بداخلي تصوّر خاطئ مثلًا؟ إنني ربما لم أخلق من أجل اليوم بالكامل! إنني ليس علي أن أبحث عن

الصباح في المساء! أم هل علي أن أفعل؟

ثم تركها تبدأ من جديد. كيف كان مجمل اليوم، عندما تم إحياء فكرة «اليوم الناجح» أثناء رحلة قطار الضواحي وهو يمرّ فوق باريس؟ ماذا حدث قبل هذا التوهّج، وماذا حدث بعده؟ («Ausculta, o fili، أنصِتْ أيّها الابن»، قالها الملاك في الكنيسة الواقعة على بحيرة «كونستانس»، حيث يوجد الخطّ الجيريّ على الجرانيت الأسود الذي نقله «هوجارت» «خط الجمال والنعمة»). كان قد تذكّر ما حدث قبل ذلك، حيث قضى إحدى الليالي المليئة بالكوابيس في منزل خاوٍ تمامًا في إحدى ضواحي جنوب باريس. كان الحُلم لا يتكوّن إلّا من -كما بدا- صورة ساكنة (صماء)، رأى نفسه فيها يجلس وحيدًا فوق صخرة عارية عالية، في الشفق المستمر والرياح الصامتة، لما تبقى من العمر. وما حدث، كان فقط، نبضات القلب التي لا تتوقّف، النبضة تلو الأخرى، وهجر العالم له، وعاصفة الحمى التي تزداد سخونة مع صلابة الكوكب، في القلب ذاته. ولكن عند الاستيقاظ، أخيرًا، بدا الأمر كما لو كانت الحمى التي استمرت لفترة طويلة قد أحرقته في الفَناء، على الأقل في البداية. وازرقت السماء للمرة الأولى منذ مدّة طويلة، فوق الحديقة التي جفت جزئيًا. ولكي يساعد نفسه على الخروج من إحساس الدوار الذي كان يشعر به بدأ في الرقص «رقصة الدوار». وبدا كلّ شيء أخضر أمام عينيه: شجرة السرو الواقفة بجوار سور الحديقة. وبدأ اليوم، أثناء وجود علامة الحزن تلك، وهذا الخَضار.

وفكّر بينه وبين نفسه: «كيف كانت ستصبح حالي بلا حديقة؟» «أنا لا أريد أن أكون موجودًا دون حديقة». وظلّ هناك ألمٌ حبيسٌ في صدره، تنينٌ يأكلُ فيه. وهبطت العصافير على الشجيرات، مرة أخرى الطيور المناسبة في اللحظة المناسبة. رأى سلّمًا، وأراد أن يصعد عليه. كان هناك ميزانُ مياه خاصّ بأحد البنائين يجري في مياه مزراب الشارع، وفي نهاية الشارع كانت ساعية البريد الشابّة تدفع دراجتها التي وضعت عليها حقيبتها الصفراء المميزة. فقد قرأها «defense d'aimer» «ممنوع الحب» بدلًا من «propriété privée, défense d'entrer» «ملكية خاصّة، ممنوع الدخول». كان الوقت قبل الظهيرة بقليل، عندما قرّر أن يستمتع بهدوء المكان أثناء المشي، وهو فاتحٌ أصابعه، ليمرّ خلالها الهواء الصامت. الأشرعة المنتفخة بفعل الهواء نائمة. كان يجب عليه أن يتمّ اليوم موضوعًا حول الترجمة، وأخيرًا كان لديه تصوّر عن هذا العمل: «يشعر المترجم كما لو أنّ أحدهم يأخذ بيده». عمل أم حبّ؟ هيّا إلى العمل، لتجدَ الحبّ من جديد. وفي حانة شمال إفريقيا بدأ الرجل الجالس خلف البار في الحديث قائلًا: «O rage! Odésespoir...» «يا غضب! يا يأس...»، وقالت سيدة أثناء دخولها: «رائحة المكان اليوم ليست كسكسي، بل يخنة»، إلا أنّ النادل ردّ عليها قائلًا: «لا، ليست يخنة، وإنما هي الشمس التي عادت لتشرق من جديد، شكرًا لوجود الشمس» «merci pour le soleil». أعطِ اليوم لي، وأعطني لليوم. بعد رحلة طويلة

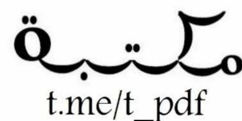
وشاقّة بالحافلة مرّ فيها بالضواحي الجنوبية والغربية، إلى جانب رحلة سيرًا على الأقدام في غابات «كلامارت» و«مودون»، جلس إلى إحدى الطاولات في الهواء الطلق، على ضفاف إحدى برك الغابات، لمحاولة استكمال مسوّدة موضوعه حول الترجمة، التي بمجرد أن كتب آخر جملة فيها انطلق قائلًا: «ليست النظرة الواثقة لما هو بين يديك، الكتاب، بل نظرة إلى الأعلى، إلى المجهول، غير المضمون!» وبدا الأمر، كما لو أنّ حبّات الفراولة الموجودة على حافّة الطريق قد احمرّت أثناء النظر إليها. «غشيه الهواء». وورد على خاطره الغراب، الذي كان يصرخ في حُلمه، «كما لو كانت انقضت عليه قنبلة». وعلى ضفاف بركة الغابة التالية، جلس ليأكل شطيرته في شرفة حانة الصيادين. وسقط مطرٌ خفيفٌ في المكان، كما لو كان هو نفسُه سعيدًا بالحدث. ثم بعد قليل، بعد الظهيرة، أثناء رحلة القطار الذي مرّ حول باريس، في البداية إلى الشرق، ثم اتّجه في شكل قوس في اتجاه الشمال، ثم عاد مرة أخرى إلى اتجاه الشرق، حتى إنّه في يوم واحد قد قام بجولة كاملة حول المدينة العالمية جميعها، حيث راودته فكرة اليوم الناجح مرة أخرى، كلا، «راودته» لم تكن هي الكلمة الصحيحة، بل يجب أن نقول إنّها «تحوّلت»؛ حيث تحوّلت فكرة اليوم الناجح من مجرّد فكرة حياة، إلى فكرة للكتابة. هذا القلب، الذي لا يزال يتألم من أثر الليلة المليئة بالكوابيس، أصبح بعيدًا بُعدَ نظرتك نفسها إذا ما نظرت إلى أسفل «مرتفعات السين»

(يمكن رؤية اسم القسم في آن واحد). هل كان هذا وهمًا؟ كلّا، بل هو العنصر الحقيقيّ للحياة. ثم ماذا؟ الآن، بعد مُضيّ نصف العام، في أوائل الشتاء، تذكر، مثلما حدث بعد سطوع الضوء الشديد تلك «النظرة»، حيث كان يرحب جدًّا بالظلام، وهذا الجزء من الطريق الموجود تحت سطح الأرض لدى «وزارة الدفاع». كان مبتهجًا حينما دخل إلى مركز التسوّق، الذي يعني اسمَه، إذا ما قمنا بترجمته ترجمة حرفية من الفرنسية «صالة الخطوات الضائعة». وكانت جموع الناس التي أنهت عملها للتوّ، تتمازح وتدفع بعضها بعضًا، وكان يشعر هو الآخر كما لو كان قد أنهى عمله لهذا اليوم. قام بسحب أكبر مبلغ مالي نقدي أمكنه الحصول عليه من فرع بنك «أمريكان إكسبريس» القريب من دار الأوبرا، وانتظر في الطابور الطويل بصبر نادر، وهو ما لم يقبله تمامًا. وتعجّب من كبر وخواء حمام الفرع، الذي استغرق فيه وقتًا أكثر من المعتاد، كما لو كان يوجد هناك في هذا المكان شيء يمكنه اكتشافه. ووقف يشاهد جهاز التلفاز الكبير الموجود أمام الحانة في شارع «دينيس» والذي تجمّعت حوله مجموعة من المارّة؛ لأنه كان يعرض من فوره مباراة في كأس العالم لكرة القدم، وهنا تنبّه إلى أنه قد نجح في تجنّب كثير من النظرات الفضولية التي كانت تلاحقه من قبل سيدات الشارع من داخل ردهات المنازل أو الأفنية الخلفية، كما لو كان التجاوز والتجاهل ينتميان لمثل هذا اليوم. ثم ماذا حدث بعد ذلك؟ بدا الأمر، كما لو كان كلّ شيء قد

سقط من ذاكرته، في ما عدا لحظة واحدة في المساء، عندما جلس على رجليه طفل صغير أمام مكتب صغير وقام بتنقيح كلمة هنا وأخرى هناك في مسودته الخاصة بموضوع الترجمة -ولاحت في ذاكرته صورة غريبة ولكنّها بارعة في تقليدها الاحترافي- وفي ساعة المساء، عندما بدأت في الحديث مع الشخص الجالس في مقابلتك في أحد المحال، وقد ساعدني هذا على شعوري بأنّني كسرت وَحدتي، وانفتحت على الآخرين في سهولة ويسر. بقي اليوم مميزًا، في وقته مثلما هو الآن، انطلاقًا من منحنى «S» الحادّ الذي مرّ به القطار، الذي كان يمكن أن يُرى فقط من منظور الطيور المحلّقة، أمّا الشعور به فكان داخليًّا جدًّا، مثله مثل أجمل سلسلة من المنحنيات والانعطافات والالتفافات، موازيًا لذلك الموجود على نهر «السين» ولكن أكثر انحناءً، وقد وجدنا هذا الانحناء مرة أخرى بعد شهر، في الانحناء الموجود بلوحة ألوان «هوجارت»، الموجودة بركن هادئ من معرض «تايت» وبعد شهر آخر وجدنا الانحناء ذاته في قطعة الجرانيت الموجودة على شاطئ بحيرة «كونستانس» في جو خريفي عاصف، وفي لحظة الآن يجري بأقلام الرصاص على الطاولة في اتجاه واحد: هذا هو الإطار العامّ المتبقّي لليوم. وكان لونه هو الأسود الفاتح. وكانت صفته، مثله مثل الفكرة التي منحني إيّاها، فهو يستحقّها عن جدارة «خيالي» وكانت كلمته الأساسية، بعد اكتشاف الوحدة أثناء الليل، كانت «المعية».

إذًا هل كان يومك الذي دار حول فكرة، محاولة الكتابة عن اليوم الناجح، هو في حدّ ذاته يومٌ ناجحٌ؟

كان الوقت آنذاك قبل بداية فصل الصيف بقليل، كانت العصافير تحلّق فوق الحديقة «على ارتفاع عالٍ جدًّا»، تقاسمت المتعة مع السيدة الشابّة التي كانت تحاول أن تسحب الحافّة المنحنية لقبّعة من القشّ، وكانت الرياح الليلية قد أحيت عيد العنصرة الذي تحتفل به الضاحية، كانت شجرة الكرز تقف وقد احمرّت ثمارها، وقد أخذت الحديقة اليومية اسم «حديقة الخطوات المكتسبة»، والآن حلَّ الشتاء، كما يتّضح -على سبيل المثال- انطلاقًا من منحنى القيادة المتكرّر، وعلى الدرابزين بينما تزهر الشجيرات ذات اللون الرمادي أمام «برج إيفل» الغارق في الضباب، كما يومض من بعيد التوت الثلجيّ عبر الأبراج البعيدة لـ»وزارة الدفاع»، بينما كانت أشواك السنط تلمع بالألوان البيضاء الضبابية التي تعكس ألوان قباب كنيسة «القلب المقدس» «Sacré-Coeur».



مرة أخرى: هل كان هذا اليوم ناجحًا؟

لا يوجد ردّ.

أنا لا أعتقد، أنا أعرف قوة الخيال: كم من أشياء أخرى كانت من الممكن أن تتمَّ باليوم، وليس بشيء آخر سوى اليوم. والآن،

في حياتي، في حياتك، في زماننا، توجد لحظته. («لقد فقدنا لحظتنا»، قالها قائد فريق البيسبول، الذي كان فريقه على وشك الفوز). يقع اليوم تحت نفوذي، لزماني. إذا لم أحاول ذلك مع اليوم الآن، فقد راوغت فرصه على المدى الطويل، وأعترف بذلك أكثر وأكثر، وبغضب أكبر تجاه نفسي، كما هي الحال مع الوقت الذي تقدم فيه المزيد والمزيد من لحظات أيامي، وتخبرني بشيء، كيف أنّني آخذ منهم أقلّ وأقلّ، وقبل كلّ شيء، أقدّرهم. فأنا -وعليّ ترديدُ ذلك مرة أخرى- غاضبٌ من نفسي، كوني عاجزًا عن الإمساك بضوء الصباح الذي يلوح في الأفق، الذي جعلني أفتح من فوري عينيّ ويسمح لي باستحضار الهدوء النفسي (أو كما قالها «بولس الرسول» في كتابه: الدخول في الهدوء)، إن اللون الأزرق لزهور اللافندر الموجودة على طاولة القراءة، كانت تشير في بداية القراءة إلى الرأي الوَسَطِيّ، وبعد بضع صفحات أصبح بالفعل نقطة مربكة في منتصف أي مكان، وأنه عند حلول وقت الغسق بدا الشكل الصامت للشحرور الأسود فوق شجيرة الحديقة، لم يبق سوى «مخطّط الجزيرة المسائية بعد يوم في البحر المفتوح»، دقات عقارب الساعة في وقت لاحق لم تعد تمثل شيئًا -بلا معنى، منسية، خيانة. نعم هو ذاك: أرى نفسي مع مرور السنوات- وكلما كانت اللحظات أغنى بالنسبة لي، صرخت بعنف إلى السماء بحثًا عن الخلاص، وكأنّني أخون يومي، يومًا بعد يوم. (يوم منسيّ، منسيّ من العالم). أحاول دائمًا الحفاظ

على اليوم بمساعدة تلك اللحظات -»الحفاظ عليه ورعايته»، آخذُ بيده، هذه هي الكلمة التي تعني «الآن»- عندما أرغب في إدراكها، والتفكير فيها، والاحتفاظ بها، ويوميًّا، لا أكادُ أبتعدُ عنها، حتّى أكون قد نسيتها حرفيًّا، كما لو كان عقابًا على تنكّري لها، الذي تمثّل فقط في مجرّد ابتعادي عنها. تتضاءل أعداد لحظات اليوم ذات المغزى المتزايد، نعم، هذا هو التعبير اللائق، الذي يوضّح لي شيئًا. لحظة دوّي أصوات الأطفال في الوادي هذا الصباح، لم ينتج عنها أيّ شيء، وظهر تأثيرُها الآن في مدة ما بعد الظهيرة، حيث كانت السحب الثلجية تتحرّك في الداخل، ومع ذلك، فإنّ الغابة الشتوية بدت لي «صغيرة في السنّ» من أثرهم... ثم ألم يكن الوقت المخصّص لتجربتي الخاصّة باليوم الناجح قد انقضى؟ هل فوت اللحظة؟ هل كان ينبغي لي أن أصحوَ مبكّرًا أكثر من هذا من أجلها؟ وهل تتوافق مع فكرة مثل هذا اليوم، بدلًا من محاولة، أشبه بشكل المزمور، دعاء لم يكن ناجحًا سلفًا؟ يوم أوضح لي شيئًا، بل أكثر من هذا، كلّ شيء فيك. صوت طقطقة أوراق الشجرة وهي تسقط بفعل الهواء أراني، كما أراني موظّف الشبّاك الأعسر الذي يتركني انتظر التذكرة طويلًا في كلّ مرة؛ لأنه يكون متعمّقًا في قراءة كتابه، حتّى انعكاس الشمس على مقبض الباب أراني. لقد أصبحت أنا نفسي عدوّ نفسي، أتلف لنفسي شعاع اليوم؛ أحطّم لنفسي الحبّ؛ أخرّب لنفسي الكتاب. في كثير من الأحيان تبدو لحظاتي الفردية وكأنها أصوات ذاتية.

«صوت ذاتي»: كلمة أخرى لمثل هذه اللحظة، نادرًا ما أجد الحروف الساكنة اللازمة للتعبير عنه، وهي ما تجعلني أستمرُّ في تأرجحي لبقية اليوم. التوهُّج في نهاية المسار الرملي إلى البركة المجهولة: آه! وتلاشى من فوره كما لم يكن قد حدث من قبل. إلهي، أو أنت، «أكثر منّي» الذي تحدّث ذات مرة «على لسان الأنبياء» ثم «على لسان الابن»، هل تتحدّث في الوقت الحاضر، نقيًّا انطلاقًا من اليوم؟ ولماذا لا أستطيع أن أمسك بما قيل أثناء اليوم، وأومن به بحكم قوة الخيال، أعرف كيف أتحدّث مع كلّ لحظة، لا أمسك بها، ولا ألمسها، ولا أفرط فيها لأحدهم؟ «هو يكون، وهو قد كان، وهو سوف يكون»؛ لماذا لا يمكن أن يقال هذا عن يومي، كما قيل عن «الله»؟

في اليوم الناجح -محاولة تسجيل أحداث هذا اليوم- كانت قطرات الندى ظاهرة على ريشة أحد الغربان. وكالعادة، كانت المرأة العجوز، حتّى وإن كانت سيّدةً أخرى غير التي كانت موجودة بالأمس، في متجر الصحف وقد انتهت بالفعل من التسوّق وكانت تريد فقط التحدّث (التعبير عن نفسها). السلم في الحديقة، يصوّر وجوب الخروج منه، لديه سبعُ درجات. وأظهرت الرمال على رواسب الضواحي لون «واجهة سان جرمان دي بري». لمست ذقن القارئة الشابّة رقبتها. أخذ دلو من الصاج شكله. تحوّل عامود صندوق البريد إلى اللون الأصفر.

كتبت السيّدة في السوق حساباتها على راحة يدها. في اليوم الناجح، يحدث أن يتدحرج أحد أعقاب السجائر فوق مزراب الطريق، كما يمكن أن يصدر أحد الفناجين دخانًا (في إشارة إلى المشروب الساخن بداخله) وهو موضوع على جذع شجرة، كما يمكن أن يضيء صفًّا من الكراسي في الكنيسة المظلمة بفعل أشعّة الشمس. يحدث أنّ الرجال القلائل الجالسين في المقهى، الذين كان صوتهم يعلو إلى درجة الصراخ، يظلّون صامتين مدة طويلة وأنّ الرجل الغريب يبقى صامتًا معهم. يحدث أنّ الحوارات الحادّة التي تحدث في محيط عملي تفتح لي أيضًا آفاقًا جديدة على الأصوات في محيطي. يحدث أن تكون إحدى عينيك أصغر من الأخرى، وأن ينتقل العصفور الصغير فوق شجيرات الغابة، وأن أفكّر في معنى مفهوم «عكس اتجاه الريح» عندما يرتفع أحد الفروع الدنيا. كما يحدث أحيانًا أيضًا، ألا يحدث شيء. في اليوم الناجح، تختفي إحدى العادات، ويختفي الرأي، سيفاجئني، وستفاجئني، وسأتفاجأ من نفسي. وبالإضافة إلى كلمة «مع» ستحكم كلمة ثانية أيضًا وهي كلمة «و». في المنزل، سأكتشف ركنًا كنت أتغاضى عنه في السابق الذي «يمكن العيش فيه أيضًا!» عند الدخول إلى شارع جانبي، «أين أنا؟ لم آتِ إلى هنا من قبل!» ستكون لحظة لم يسمع بها أحد، تمامًا مثل الشعور الجديد كليًّا الذي يتولّد في المساحات المظلمة ظلامًا خفيفًا داخل التكعيبة التي تمثّل «عالمًا جديدًا!» وعلى مساحة صغيرة من الطريق

تتجاوز المعتاد، عندما تنظر إلى الخلف، وسوف نسمع تلك الجملة المتعجبة «أنا لم أرها من قبل!» في الوقت نفسه، كما هي الحال أحيانًا لدى الطفل، ستندهش بالراحة. في اليوم الناجح، كنت سأصبح أنا أداته بكلّ تأكيد، فكلُّ ما عليك هو الذهاب مع النهار، والاستمتاع بأشعة الشمس، والانطلاق مع الريح، والاستمتاع تحت المطر، وستكون كلمة الوقت بالنسبة لي هي «السماح بالمنح». سيكون كيانك الداخلي متنوّعًا مثل العالم الخارجيّ أثناء هذا اليوم، وفي نهاية اليوم ستترجم كلمة «أوديسيوس»، «الزحام والضجيج» بكلمة «التنوّع»، وتتمتّع بهذا التنوّع في داخلك كما لو كنت ترقص. في اليوم الناجح، كان البطلُ «سيقوم بالضحك» على مصائبه (أو على الأقلّ سيبدأ بالضحك عند الثالثة).

كان بصحبة الأشكال، حتّى الأوراق المختلفة على الأرض كانت تلفت انتباهه. فتح يومَه الخاصَّ ليصبح يومًا عالميًّا. كلُّ مكان كان سيحصل على لحظته، وكان بإمكانه أن يقول عن ذلك: «هذا هو الموضوع». كان لديه تقبّل لفكرة موته (لم يفسد الموت اليوم). إنّ اعترافه بكلّ شيء كان «وجهة نظر» ثابتة، في مواجهة وجهة نظرك، أو حتّى في مواجهة وردة، في مواجهة الأسفلت، والمادة، أو «النسبية»، دعاه لمواجهة الخلق، لا يزال وما زال. كان سعيدًا سواء فعل شيئًا أو لم يفعل شيئًا، وفي تلك الأثناء كان أيّ حمل على ظهره يمنحه الدفء. في اللحظة الحالية، من أجل كلمة «نظرة العين»، أصبح هو فجأة أنت. وفي نهاية اليوم، كان

سيطلب كتابًا؛ أكثر من مجرّد تسلسل زمني: «حكايات أسطورية عن اليوم الناجح». وفي النهاية، كان هناك النسيان المجيد، بأنّ اليوم كان يجب أن يكون ناجحًا...

هل مررت بـ«يوم ناجح» من قبل؟

كلّ مَن أعرفه قد مرّ بأحدها، بل أكثر من واحد في العادة. كان كافيًا لبعضهم فقط ألا يكون اليوم طويلًا. قال الآخر ما يشبه: «أقفُ على الجسر، السماء من فوقي. يضحك في الصباح مع الأطفال، ينظر. لا شيء مميّز، النظر يجلب السعادة. وبالنسبة للثالث، فإنّ شارع الضواحي الذي كان يسير فيه للتوّ بقطرات المطر المنثورة بالخارج على المفتاح العملاق لمتجر صانع المفاتيح، مع أعواد البامبو في أحد الأفنية الأمامية، مع العدد الثلاثي لآنية الماندرين والعنب، والبطاطس المقشّرة الموجودة على السطح الخارجي لعتبة المطبخ، بسيارة أجرة، كانت متوقّفة أمام منزل السائق مرة أخرى، «يوم ناجح» كهذا. كان هذا الكاهن، الذي كانت أكثر كلماته شيوعًا هي «الشوق»، يعدُّ يومًا ناجحًا بالنسبة له عندما يسمع صوتًا يتحدّث بلطف. ألم يخطر بباله مرارًا وتكرارًا بعد ساعة لم يحدث فيها شيء، سوى أنّ طائرًا استدار حول أحد الأغصان، ووضعت كرة بيضاء بين الشجيرات، وجلس الطلاب على رصيف محطّة القطار تحت أشعّة الشمس، بتفكير لاإرادي: «ألم يكن ما حدث حتّى الآنَ هو اليوم الكامل؟»

ولم يفكّر كثيرًا عندما تذكّر ما حدث في مساء اليوم السابق -نعم، لقد كان نوعًا من الصراخ- لأنّ الأسماء عادةً ما تكون أشياء أو أماكن لمجرّد أخذها في الاعتبار: «كان هذا هو اليومُ الذي انحنى فيه الرجل بعربة الأطفال عبر كومة الأوراق»، «كان هذا هو اليوم الذي اختلطت فيه الأوراق النقدية للبستاني بالقشّ وأوراق الشجر المتناثرة»، وكان ذلك في يوم المقهى الفارغ، حيث كان الضوء يهتزّ بفعل صوت المبرد ...». فلماذا لا تكون راضيًا عن ساعة واحدة ناجحة؟ لماذا لا نعلنها اختصارًا أنّ اللحظة هي اليوم؟

قصيدة «أونجاريتي» «أنا أنيرُ نفسي بنفسي / بالذي لا حصر له» عنوانها غدا: هل يمكن أن يتحدّث السطران أيضًا عن مدّة ما «بعد الظهيرة»؟ هل كانت لحظة أو ساعة تامّة، كافية بالنسبة لك في النهاية لتتوقّف عن طرح السؤال الأبديّ، عمّا إذا كنت قد فشلت مرة أخرى في هذا اليوم؟ محاولة مستحيلة لليوم الناجح، لماذا لا نكتفي فقط «بالفشل غير التامّ»؟ وإذا كان هناك يوم ناجح لك، فهل كان خيالك، غنيًّا ورائعًا كما كان يحيط به، ولم يكن مصحوبًا بالخوف الغريب من كوكب غريب كما كانت الحال من قبل، وبدا يومك غير الناجح المعتاد بالنسبة لك جزءًا من كوكب الأرض، كنوع مثل وطنه المكروه؟ وكأنّ شيئًا لن ينجح هنا، وإذا كان هناك شيء ناجح فبهذا نكون في نعمة؟ في نعمة؟ في نعمة ورحمة؟ مرة واحدة، ألا يكون ذلك قد فعل شيئًا غير لائق وغير مستحقّ، وربّما حتّى على حساب شخص آخر؟ لماذا

يتبادر إلى ذهني الآن مع «اليوم الناجح» جَدي أثناء وفاته، والذي كان يقوم في أيامه الأخيرة فقط بخدش جدار الغرفة بأصابعه في كل ساعة يهبط أكثر للأسفل؟ نجاح واحد متفرّد، مع فشل عام مستمرّ وضياع، ما الذي يهمُّ؟

ليس لا شيء.

اليوم الذي أستطيع أن أقول عنه إنّه كان «يومًا»، واليوم الذي مرّ بمعاناة. في وقت مبكّر جدًّا من اليوم. كيف استطاع الناس حتّى الآن التعامل مع أيامهم؟ كيف حدث أن كتبوا في القصص القديمة بدلًا من «ومرت أيام كثيرة» نجدهم كثيرًا يكتبون «وتحقّقت أيام كثيرة»؟ خائن لليوم: قلبي أنا، يطردني من اليوم، ينبض، يزقّني إلى خارج اليوم، الصيّاد والصيد في آن واحد. هدوء! تخلّص من تلك الدوافع الخفية. أوراق الشجر العالقة على أحذية الحديقة. ولا أريدُ أن أذكر الخروج من قفص التفكير. الانحناء تحت شجرة التفاح، والجلوس في وضع القرفصاء. القارئ يجلس القرفصاء. في مستوى الركبة تتجمّع الأشياء معًا لتكون المنطقة المحيطة. ويستعدّ للجرح اليومي. نشر أصابع قدميك. « الأيام السبعة الخاصّة بالحديقة» كان من المفترض أن يكون هذا هو اسم الحلقات الخاصّة بـ»دون كيشوت» التي لم تكتب. الوجود في الحديقة، الوجود على الأرض. مسار دوران الأرض غير مستقرّ، حتى إنّ طول الأيام مختلفٌ، لا سيّما بحسب مقاومة الرياح على

سلاسل الجبال. نجاح اليوم أو تركه؛ والترك كأنّه فعل. لقد ترك الضباب يمرُّ أمام النافذة، وترك العشب يتحرّك بفعل الهواء خلفَ المنزل. والوقوف في الشمس يُعدُّ نشاطًا أيضًا: الآن اتركها تدفئ جبهتي، والآن مقلتي، والآن ركبتي. ثم حان وقت دفء الجسم ثم بين كتفي. رأس زهرة عباد الشمس الذي لا يفعل شيئًا سوى اتّباع ضوء النهار. قارن اليوم الناجح باليوم الخاصّ بهيوب. بدلًا من قول «تقدير اللحظة»، يجب أن نفسّرها بشكل أصح «مراعاتها». مجرى اليوم، خاصّة مع ضيقه، أصبح واعيًا -أليس هذا نوعًا من التغيير؟- يمكن أن يعنيَ لي، مثل أيّ شيء آخر، كيف *أنا*! توقّف في أرقك الأبديّ، وسيأتي الهدوء أثناء الهروب. وعندما تصل إلى الهدوء أثناء الهروب، تستطيع السماع. عندما أكون مستمعًا، أكون على القمّة. نعم، «عالية في الأذن» تخترق الضوضاء ضجّة العصفور. صوت ورقة تلتقي بخطّ الأفق البعيد، الصامت تمامًا، أسمعه أنا كرنينٍ. إنصات مثل: اللصّ الذي ينصت إلى صوت فتح القفل، عند محاولته فتح الباب. القفزة الثلاثية للشحرور فوق السياج النباتي، التي تباطأت بفعل الرحلة، تعزف لي الآن لحنًا. وبالمثل، كان هناك أولئك الذين يعزفون اللحن أثناء قراءة كتاب. (أمّا قارئ الصحيفة، لا يمكن لأحد أن يتخيّل إلا صفيره الذي يصدره (انطلاقًا) من بين أسنانه). «لقد أصبحت متعبًا في سمعك»، قالها بولس الرسول الغيور في رسالة إلى الجماعة، وفي رسالة أخرى قال: «قتال الكلمات غير مُجدٍ تمامًا،

كارثة للمستمعين». الصوت النقيّ: لو أنّني أنجح يومًا كاملًا في الحفاظ على الصوت النقيّ! ولكن ربّما يكون الوجود فقط أكثر أهمّية من الاستماع، كما قيل عن زوجة «بيكاسو» الأخيرة -على سبيل المثال- إنّها لم تفعل شيئًا سوى أن تكون «حاضرة» في مرسمه! يوم ناجح، يوم صعب! أثناء تجميع أوراق شجر الحديقة، ظهر فجأة وميض من بين أوراق الشجر البنية، ضوء في صفار ضوء الشموع، كان صادرًا من رجل الغراب. إظلام الألوان، تفتيح الشكل. في الزاوية الظليلة التي لا تزال شديدة الصقيع، يمكنني أن أسمع نفسي الآن أمشي على البوص كما كنت أفعل في الماضي. عندما تنظر لأعلى، ترى السماء منحنية. ماذا كانت تعني «سحابة الثلج»؟ الأبيض هو السائد، بينما توجد مسحة زرقاء فيه. البندق يصطدم في راحة اليد، ثلاثة. في اليونانية، كانت هناك كلمة واحدة لـ»أنا اكون»، التي لم تكن شيئًا سوى كلمة «O» الطويلة، ويمكنك أن تجدها مثلًا في الجملة: «طالما أنا موجود في العالم، فأنا نور العالم». والكلمة المناسبة، لما كان يجري في شجرة السرو كانت «موجة ضوء». انظر وانظر مرة أخرى بعيون الكلمة الصحيحة. وبدأت الثلوج تتساقط. وبدأت الثلوج تتساقط! «Il neige»! الصمت. كان صامتًا. كان صامتًا في علامة على الموت. كان يجب أن أقول ليس «هو/ هي الذي/ التي بارك/ ت الزمان»، بل: «هو، وهي، والموتى، هم من يباركون الزمان لي، إذا سمحت لهم بذلك!» وفي الوقت نفسه الرغبة في

التلعثم: إنّه يريد التلعثم. في الضواحي، يتمّ كلّ شيء بشكل «فردي» (كلمة من أحد مشاة الضواحي). وقوف رجل القمامة على قدم واحدة فوق مؤخّرة السيّارة. كانت المطبّات المعتادة في الشوارع تسمّى «إبطاءً». ربّما لم تكن مدة يوم واحد مدة كافية لتشكيل نمط شامل، بل كانت مجرد نمط في حدّ ذاتها، هل يبعث هذا على السرور؟ أنزل مع عامل تصليح الأسقف من سطح البيت في وقت راحة طعام الغداء. ألم يكن ينبغي أن أبقى يومًا كاملًا في المنزل، لا أفعل شيئًا سوى العيش؟ نجاح اليوم مع المعيشة فقط؟ المعيشة: الجلوس، والقراءة، والبحث، والاستمتاع بالتفاهة. ماذا فعلت اليوم؟ لقد سمعت. ماذا سمعت؟ آه، المنزل. آه، تحت خيمة الكتاب. ولماذا تغادر المنزل الآن، مع أنك كنت في المكان، مع الكتاب؟ لتتنصت لما قرأت، في الهواء الطلق. وانظر إلى زاوية المنزل، التي تسمّى مغادرة: حقيبة سفر صغيرة، ومعجم، والأحذية. رنين الأجراس مرة أخرى في برج الكنيسة القروية: الصوت يتماشى تمامًا مع وقت الظهيرة الآن، وفي الفتحة المظلمة لا يمكنك رؤية سوى طنين منها، كما لو كانت إطار عجلة. تحدث الزلازل في بعض الأحيان في أعماق الكرة الأرضية، وتسمّى «الزلازل البطيئة»، التي يُقال إنّ الكوكب يواصل رنينَه بفعل تأثيرها مدّة من الوقت؛ تمامًا مثل «حركة الأجراس»، رنين الأرض. الصور الظلّية لرجل وطفل يحمل حقيبة مدرسية تهتزّ في نفق القطار، كما لو كان هناك رجلٌ يمتطي حمارًا. ومرة

أخرى، كلمة «جوته»: إنّ الحياة قصيرة، لكنّ اليوم طويل. ألم تكن هناك أيضًا أغنية لـ»مارلين مونرو» تقول فيها: «يوم واحد طويل جدًّا، وحياة واحدة قصيرة جدًّا ...»، ولكن أيضًا: «الصباح يصبح مساءً تحت جسدي». الانحناءات البيضاوية التي تأتي بها أوراق الجميز أثناء السقوط السريع: يجب أن ترسم الآن خطًّا لدرجة الميل التي يجب أن تسيرَ عليها محاولتي لليوم الناجح. الاختصار! «خطّ الجمال» الخاصّ بهوجارت ليس مدفونًا في لوحة الألوان في الحقيقة، بل هو مشدودٌ فوقها مثل حبل ملحوم، أو سوط. اليوم الناجح والاختصار. (وبجانبه الرغبة في تأجيل النهاية، كما لو كنت أنا، أنا بصفة خاصّة، يمكن أن أتعلّم المزيد من التجربة مع كلّ يوم إضافي). اليوم الناجح والانتظار السعيد. اليوم الناجح واكتشاف الضياع. سكوت الحياة في الصباح. الارتباك في مدّة ما بعد الظهيرة: هل هو مجرّد قانون وهميّ؟ لا تدع نفسك تحكمها مثل تلك القوانين الوهمية كلَّ يوم! ومرة أخرى بولس الرسول: بالنسبة له «اليوم» هو يوم القيامة أو يوم الحساب، وبالنسبة لك؟ هو يوم القياس، لن يحكم عليك بل يقيسك؛ أنت شعبه. من يتحدّث هنا إلى من؟ أنا أتكلّم مع نفسي. صمت الغربان في مدّة ما بعد الظهيرة. ركض الأطفال، باستمرار، تحت الرياح. ومع ذلك، في أعلى المستويات هناك، ما زالت ثمار الجميز تتأرجح: «القلب موجود» (من الفرنسية). وما زالت تتأرجح هناك أثناء مدّة الهمهمة، مثل شجر البلوط الذابل الآن، أنا، وأنت. فماذا

سنكون دون تلك الهمهمة؟ وأيّ كلمة تتوافق معه؟ نعم (دون صوت). ابقي معنا، أيتها الهمهمة. مسايرة اليوم، التحدث إلى اليوم (التماثل). ماذا حدث لهذا اليوم في المنحنى المرتفع فوق باريس، بين «سانت كلاود» و»سوران»، تقريبًا عند محطّة «فال دور»؟ ذهب في طيّ النسيان. الومضة خفيفة الظلام آنذاك، عند دوران طيور السنونو في سماء الصيف، ولحظة الأسود المشوب بالأبيض والأزرق الآن؛ طار العقعق والسماء الشتوية.

منحنى «S» مرة أخرى، قبل بضعة أيام، على كتف وعنق ورأس الإنجيليّ «يوهانس» في العشاء الأخير فوق بوّابة «سان جرمان دي بري»، حيث كان مستلقيًا على الطاولة بجسمه العلوي كلّه بجانب ربّه «يسوع»، مثل كل التماثيل الحجرية أطاحت الثورة بوجهه هو الآخر. اليوم الناجح والنسيان المجيد للتاريخ: بدلًا من ذلك نموذج الماس اللانهائي، العيون البشرية في الشوارع، في ممرّات المترو، في القطارات. سواد الأسفلت. زرقة سماء المساء. ارتجاف يومي، الثبات. ضع بصمة قدمك في ثلج رصيف المحطّة بجوار بصمات أقدام الطيور. كان هناك يوم صعب عندما سقطت قطرة مطر واحدة داخل أعماق أذني. فرشاة الأحذية على الدرج الخشبي عند غروب الشمس. طفل يكتب اسمه أول مرة. السير على الأقدام حتّى ظهور أول نجمة. لا، لا يغني «فان موريسون»

في أغنيته عن «صيد الأسماك» في الجبال، ولكن «طوال اليوم بالخارج» «out all day»، عن مشاهدة الطيور. إنّه يترك لسانه يغنّي، وقد انتهت أغنيته بعد أن بدأت بصعوبة. لحظة سير سيارة الغابة المغطاة بالطين بين صفّ السيارات الأخرى النظيفة. أبواب الغابات تصدر صوت صرير أثناء فتحها. الباب الدوار لليوم الناجح: أشياء مثل الناس يلمعون فيه ككائنات. اليوم الناجح والرغبة في مشاركته. يجب أن تطبق العدالة دائمًا وبأيّ شكل على الجميع. يا لَليوم الصعب! أكان ناجحًا؟ أم أنه تم «إنقاذه»؟ فجأة، منذ بدء الظلام، أتت دفعة الفرح للاستمرار. وكلمة متغيّرة، تصحيح الكلمة التي تمثّل هذا اليوم: «زقة» بدلًا من كلمة «دفعة» المعتادة. التمسُّك أثناء السير ليلًا: الطريق يتّضح، المسار، أخيرًا أصبح من الممكن أن تقول «طريقي»، وتتوقّف عن السرّية. «انظر هي تأتي مع الغيوم» تأتي مع الرياح.

صراخ البومة ثلاثي النغمة. لحظة زرقة من القارب في إحدى برك الغابة، لحظة سواد من القارب في البركة التالية. أول مرة في هذه الضاحية، وراء مرتفعات جبال السين التي تمنع وصول الضوء عن باريس، رؤية نجم «أوريون» مرتفع في ليلة الشتاء، ومن تحته أعمدة الدخان الموازية والمتصاعدة من المداخن، ومن تحتهم خمس درجات حجرية مؤدية إلى باب الجدار، و»إنجريد بيرجمان»، التي انهارت في «سترومبولي» بعد ليلة قاتلة تقريبًا على المنحدرات الصخرية للبركان، وتفيق

عند شروق الشمس تندهش فقط بالوجود: «كم هو جميل. أي جمال!» في الحافلة الليلية رقم 171 المتّجه إلى «فرساي» يقف راكب واحد فقط. كابينة الهاتف المحترقة. تصادم سيّارتين عند «بوانت دي شافيل»: يقفز شخص من إحداها حاملًا مسدسًا. أضواء التلفزيون في واجهات نوافذ شارع «روجر سالينجرو»، حيث تتخطّى أرقام البيوت رقم 2000. صوت الرعد الذي تصدره قاذفات القنابل المقلعة من مطار «فيلاكوبلاي» العسكري، خلف تلّ الغابة مباشرة، يزدادُ يومًا بعد يوم مع اقتراب الحرب.

- والآن أنت تفقد حبل الأفكار تمامًا. العودة إلى البيت إلى الكتاب، والكتابة، والقراءة. العودة إلى النصوص الأصلية، حيث يقال على سبيل المثال: «اسمح للكلمة أن ترنّ، قف معها، سواء كانت اللحظة مناسبة أو غير مناسبة». هل سبق لك أن شهدت يومًا ناجحًا؟ الذي ربّما تجتمع فيه أول مرّة لحظة سعيدة، حياة سعيدة، أو ربّما حتّى أبدية سعيدة؟

- أبدًا، بالطبع.

- بالطبع؟

- وإذا كنت قد شهدت شيئًا كهذا، حتّى وإن كان غير مكتمل، أتصوّر أنني لن يكون عليّ أن أخشى فقط من الكابوس في الليلة التالية، ولكن عليّ أن أخشى أكثر من عرق الموت.

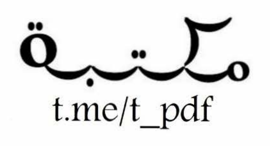
- إذًا هل يومك الناجح ليس حتّى فكرة، بل مجرّد حُلم؟

- نعم، مع الفارق أنّني لم يكن لديّ هذا الحُلم، ولكن جسّدته هنا في تلك المحاولة. انظر للممحاة التي أصبحت سوداء وصغيرة جدًّا، انظر إلى كومة خشب أقلام الرصاص تحت النافذة. صياغات وصياغات في الفراغ، من أجل لا شيء، ومرة أخرى لا شيء، لشيء ثالث، غير مفهوم، ولكنّنا نضيع كلانا دونه. في رسائله غير الموجّهة إلى الجماعة، ولكن إلى الأفراد، وإلى مساعديه، يكتب «بولس الرسول» المحاصر في روما، عن فصل الشتاء:

«عجّل بالمجيء، قبل الشتاء، عزيزي «تيموثي». وأحضر لي المعطف الذي تركته في «ترواس» لدى كاربوس...».

- وأين المعطف الآن؟ اترك الحُلم. انظر كيف يتساقط الثلج بجانب عشّ الطائر الفارغ. انهض من أجل التغيير.

- أما آن الأوان لننتقل إلى الحُلم التالي؟





بيتر هاندكه

من شهد من قبل يومًا ناجحًا؟ الأغلبية ستقول إنها مرت بمثل هذا اليوم، ولهذا قد يكون من الضروري أن نسأل سؤالًا آخر. هل تقصد "ناجحًا" أم يومًا "جميلًا" فقط؟ هل تتحدث عن يوم "ناجح" أم يوم "خالٍ من الهموم"؟ هل يعني اليوم الناجح بالنسبة لك، يومًا مر من دون مشكلات؟ هل ترى أن هناك فرقًا بين اليوم السعيد واليوم الناجح؟ إذًا هل اليوم "الناجح" يختلف اختلافًا جوهريًا عن اليوم الخالي من الهموم، أو يوم الحظ، أو اليوم المفعم بالنشاط، أو اليوم المثالي، أو اليوم الذي يتجلى في الماضي البعيد -حدث واحد يكفي، ليجعل يومًا كاملًا يرتقي في المجد- بغض النظر عما إذا كان يومًا هامًا بالنسبة للعلم، أو الوطن، أو الشعب، أو شعوب الأرض كافة، أو الإنسانية جمعاء؟

كيف يدور في مخيلتك يوم كهذا؟ ارسم لي صورة أوليَّة له، أو صِفْ صورًا من هذا اليوم! احكِ عن اليوم الناجح. دعنا نشعر برقصة اليوم الناجح. أطربني بأغنية اليوم الناجح!

هل يتعلق الأمر بعصرنا المميز، حتى يصبح نجاح يوم واحد موضوعًا (أو اتهامًا)؟

بيتر هاندكه: كاتب وروائي ومسرحي ومترجم نمساوي، ولد عام 1942، وفاز بجائزة نوبل للآداب 2019.

انطلقت شهرته عام 1966 مع نشر روايته الأولى، وأصبح نجمًا في الأوساط الأدبية المتحدثة بالألمانية مع نجاح مسرحياته خلال ستينيات القرن العشرين.

فاز هاندكه بالعديد من الجوائز الكبرى وأثار الجدل في العديد من المواقف والأوقات، وعلى مدى سنوات طويلة ظل يذهل محبي الأدب بأعماله التي تبرع في تصوير المشاعر الإنسانية وتبدع في مقاربة مكنونات العقول والقلوب.

Cover design by: Alaa Elnewehy




ISBN 978-977-821-132-0
9 789778 211320